جار النبي الحلو

شجو الهديل

رواية ◄ دار العين للنشر

٢٧٠٧٤٢٨١١٢

شَجْوُ الهَدِيل

رواية

جار النبي الحلو



دار العين للنشر

أسستها د. فاطمة البودي عام 2000

المدير العام

4 ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: 23962475 20+، فاكس: 23962476 20+

E-mail: elainpublishing@gmail.com

Web: https://elainpublishinghouse.com

الطبعة الأولى: 2024 م

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٤/٤٦٦٧

I.S.B.N 978-977-490-746-3

المَنوَر

أخيرًا انتهيت من توضيب المنوَر، ثلاثة أيام وأنا أحطُّ وأشيل وأرمي، رميث الكثير من مخلّفات هذه العمارة ذات الطوابق الخمسة. سكانها يستسهلون رمي الأشياء الصغيرة، فجمعث من المنور علب سجائر فارغة لأنواع مختلفة وأعقابَ سجائر، وولاعاتٍ رخيصة، وأقلامًا جافة، وعلب مشروبات غازية هشّة، وورد بلاستيك، وأوراقًا مكوَّرة متهالكة، وصورًا من مجلات وجرائد لنساء عاريات، وصورًا لقادة، وجمعث هذه الأشياء في بطن شوال، ثلاثة أيام وأنا أنظّف المنور، بل لمّعت ماسورة المجاري البعيدة في الركن، وفوق غطاء بير المجاري فردث كرتونة كبيرة تحمل اسم سوبر ماركت.

***

في البداية كان فتحي مذعورًا من المكان، يدعك عينيه ليَرى، هو القادم من بلدة ريفية بواسطة خال صاحب البيت، الخال يرى أن فتحي تعدّى الأربعين من عمره، وكلّت عيناه ويشوف "طشاش" وهو في الآخر من العائلة؛ فهو ابن عمّة عَمّه التي تعثّرت حياتها منذ مات زوجها، وانكسر عظم حوضها حتى ماتت. صاحب البيت يحب خاله ويسمع رأيه، وقرّر أن الموضوع بسيط، وقال: "أرميه في المنور ويلقّط رزقه".

***

سهير هي أول من دقت على بابي، هذا الباب المشغول بالحديد ولا يُخفي شيئًا، ولا يَستر. في القريب العاجل سوف أدبّر بعض الكراتين من السوبر ماركت لأسدّ البابَ المفتوح عليّ، لا يخلو الأمر من أنني أخلع ملابسي أو أتجوّل بملابسي الداخلية. الفتاة خلف الباب الحديدي تبتسم ابتسامة لم أرَ مثلها في عمري. اقتربث من الباب، اتسعت ابتسامتها وسألتني بصوتٍ رطبٍ مثل صوت جدتي: "اسمك إيه؟" ترددتْ! وقالت: "ف.. فتحي". مدث يدَها بلِفّة وأعطتها لي،

وهرولت. جلست على البلاط الصغير الأحمر والأبيض، وفتحت (اللفّة)، بالراحة لأحافظ على ورق الجريدة، لأنني سأحتاجه حتمًا. كان في اللفّة مفاجأة العمر:

قميص "كاروهات" بنصف كمّ لونه أرزق وبنطلون جينز أزرق، نهضت مسرعًا، وبجوار ماسورة المجاري وبئر الصرف خلعت الجلباب وارتديت القميص الأزرق الكاروهات، والبنطلون، وتخيلت أنني صرت شخصًا آخر، وقررت أن أشتري مرآةً صغيرة، سأعلقها على الحائط، وأبحلق فيها لأرى ما أنا فيه.

***

فتحي عزت.. في أيامه القليلة الأولى بالمنور لفت انتباه معظم السكان، أطلّوا من علٍ، فتحوا النوافذ بحرص وأطلّوا عليه، كان مرّةً بالجلباب، ومرةً بالقميص والبنطلون، وبدأ البعض يتلصّص عليه من الباب الحديد الذي يفصل المنور عن مدخل العمارة، وبعض العيال حاولوا إزعاجه، وحاولوا مداعبته، لكنه لم ينفعل، فقد علّق كلام صاحب البيت حلقةً في أذنه: "لا ترى.. لا تتكلم". وحين يسأله البعض عن اسمه يتردد ثم يقول: "فتحي".. لم يتضرر سوى الأستاذ فتحي مدير المدرسة الثانوية الذي يحمل نفس الاسم، خفّفت عنه زوجته وقالت: "الجميع يناديك أستاذ فتحي.. وأنا لا أقول لك إلا يا سي فتحي، روّق والنبي". ولفت انتباة الجميع صمت فتحي الدائم وسكونه وانكماشه في أي ركن حتى إن عماد طالب الثانوية العامة أهداه كرسيًا قديمًا في حالة جيدة، ولما جلس عليه فتحي للمرّة الأولى لم يصدّق، ووضع رِجلًا فوق رجل، ثم أحسّ بخجل من فعلته فاعتدل على الفور، وشدّ الكرسي بجوار باب المنور المشغول بالحديد الذي يسمح له بالفُرجة، فأخذ يتفرّج بما يسمح له بصره، حاول قدر ما يستطيع التعرّف إلى السكان.

***

أنا مستغرب من شكل هؤلاء السكان، على وجوههم غضب، لا يبتسمون، ولا

يكلِّم أحدهم الآخر، الشخص يضرب في كتف الآخر ولا يكلِّمه. صفتْ الطابق الأول الأرضي غريب ومريب، لم أسمع بابه يُغلق أو يُفتح رغم بُعده عني بخمس درجات سلَّم. أجمل وقت عندي هو الصبح عندما ينطلق تلاميذ العمارة بصخبهم ويذكّرونني بزقزقة العصافير فوق الشجر ساعة الفجر، وعرفت بعد ذلك أن البعض يركب "ميكروباص" المدرسة المنتظر في الخارج، والآخرون يمشون في شوارع متفرقة. ووقت عودتهم من المدرسة حين أسمع صخبهم أخرج من المنوَر وأشد الكرسيّ وأجلس بجوار الباب الحديدي، لأراهم عائدين من المدارس على وجوههم عَرق، وأصواتهم عالية مسلوخة، حتى وقف أمامي تلميذ صغير، حقيبته المدرسيَّة مشدودة على كتفيه، ومد يده بباكو بسكويت وقال:

- خذ يا عَمُّو.

فرحث جدًّا بكلمة عمُّو، فعدلت ياقة القميص الأزرق جيدًا، وشكرته، وعرفت أن اسمه سعيد ابن الست نعمات، هو قال لي هذا عندما سألته: "أنت ابن مين؟" قال: "ابن الحاجّة نعمات".

ونطّ إلى دماغي أنه يمكنني أن أسأله عن العيال وأعرف أسماء السكان. وأول واحد من السكان قال لي: "صباح الخير يا فتحي"، كان الأستاذ فتحي ناظر المدرسة، وانتفضتُ لِمنظره المَهِيب، ونظارته التي تمنيث نظارة مثلها لعلّي أرى بوضوح، رغم أنني أقترب من التلفزيون وأشاهد عمر الشريف وهند رستم بوضوح، وأستلقي على قفاي من الضحك لما أشوف إسماعيل ياسين - يا عقتي!!

***

كانت مشكلة عبدالسلام صاحب البيت أنه لم يعرف أبدًا ماذا سيفعل بفتحي؟ فهو لم يسعَ لأن يكون بوابًا لبيته ذي الطوابق الخمسة ، وأيضًا خاله لم يفكر بالأمر، لكن عبد السلام أخذ فتحي وحطّه في المنور، وقرّر أن يعطيه مبلغًا كل

شهر ليُعينه على الحياة، وأضافت مدام عبد السلام: "ونعطيه كيس سكر أو زجاجة زيت من بواقي التموين، أو طبق بامية بدل رميه في الزبالة". تنهّد عبد السلام ووضع يديه على كرشه الصغير، وفكّر بعمق لأن فتحي مهما كان من العائلة، وتمتم: "ولكن لا ينفع النوم على بلاط المنور". المدام طبطبت على كتفه وقالت: "عندنا بطاطين قديمة ومُخدّة". ونادت على ابنتها الكبيرة: "يا حنان". ونهض عبد السلام ودخل حجرة نومه، وخلع حمّالة البنطلون عن كتفيه وارتمى بظهره على السرير. فيما حنان طالبة كلية الآداب قسم الفلسفة التمعت عيناها بأفكار متلاحقة، ونزلت من الطابق الثالث حتى المنور، وأشارت لفتحي: "تعالَ"، فنهض مسرعًا وقفل الزرار العلوي لقميصه الأزرق الكاروهات وقالت له: "افتح". ففتح وقدمت له كرتونة كبيرة جدًا، متهالكة قليلًا لكنها كبيرة جدًا.

***

لم أُصدّق نفسي عندما فتحتُ الكرتونة ووجدتُ بها بطانيّة لونها بُني في بيج في حالة جيدة جدًا، ورائحتها طيّبة، أنا حاسّة شمي قوية جدًا، وكانت أمي صغيرًا تضربني، ثم كبيرًا تنهرني لأنني أضع كل شيء على أنفي لأشمه قبل أي استعمال حتى الأكل. بطانية عمري ما تغطّيت بمثلها، ومخدة قصيرة ولها تلبيسة مطرّزة بخيوط زرقاء وحمراء، وقميصًا أبيض كبيرًا شكل عبد السلام أفندي، ياقته متآكلة لكنه نظيف، وشِبشبًا. نعم شبشب بُنّي اللون، دسستُ قدمي فيه فدخلت بسهولة، ووجدتُ في قعر الكرتونة حافظة نقود صغيرة، لونها أسود جلدها متآكل، و.. حين مددتُ يدي لأفتحها، خفتُ أن يضحك عليَّ الشيطان، ماذا سيكون في الحافظة؟ وما دخلي أنا؟! أنا بريء! هل تكون خطّة لكي يرميني الأستاذ عبد السلام في الخارج؟ وما الذي أعرفه في الخارج، سأهيّم مثل كلب في الشوارع، وأمدُّ يدي للخلق لأجمع ثمن تذكرة ميكروباص أو أُتوبيس، لطمت وجهي بيدي، وهتفتُ: "يوم أسود!!" بعد وقتٍ، جمعت كل شجاعتي وأخذتُ الحافظة السوداء في يدي وهرولتُ على درجات السلالم، وخبطتُ في شخص

مُلتحٍ يفوح برائحة عطر نفَّاذة، وفي الطابق الثالث كانت إصبعي المرتعشة تدق جرس الباب، فتحتِ المدام وخلفها حنان في بيجامة شبه أطفال التلفزيون، مددتُ يدي المرتعشة بالحافظة السوداء ذات الجلد المتآكل، وأقسمتُ باللّه العظيم وشرحتُ ما حدث، فضحكتْ حنان وأخبرتني: "هي حافظة قديمة ليس فيها ورقة"، وقالت المدام وهي تبتسم: "خذها يا فتحي". أطبقت على الحافظة بفرح الناجي من مصيبة، نزلتُ بعض الدرجات ثم جلستُ ألتقط أنفاسي، وفككتُ الزرار العلوي للقميص، وكانت سيدة سمينة جدًا تصعد الدرجات وصوت أنفاسها اللاهث عاليًا وتقريبًا كانت تنفخ في قرف، أزاحتني بركبتها ولزقتني في الجدار. لكنني حمدت اللّه كثيرًا الذي أنقذني من ظنٍّ سيِّئ ومصيرٍ أسود، وخطرت على بالي فكرة مفرحة، فنزلتُ أتقافز درجات السلم مثل طفلٍ ممسكٍ بالدرابزين الخشبي الناعم حتى وصلتُ لباب المنور المفتوح، ودخلت، واتجهت إلى الركن حيث الكرتونة التي وضعتُ فيها بعض حاجياتي، ومِن تحت الهدوم أخرجتُ بطاقتي الرقمية التي دُخت السبع دوخات لاستخراجها بمساعدة الأستاذ إسماعيل سكرتير مدرسة التجارة في بلدنا، أمسكتُ البطاقة بحرص، وفتحت الحافظة السوداء، وبحذرٍ فتحتُ سوستة الجيب الصغير بالحافظة ووضعتُ البطاقة الرقمية وتحسَّستُها في الداخل لأتأكد من وجودها، ثم شددتُ السوستة بمَهَلٍ حتى النهاية. وفرحت بالحافظة ودسستها في الكرتونة تحت الهدوم.

***

صاحب البيت عبد السلام يبصُّ بين وقتٍ وآخر من شباك المطبخ بالطابق الثالث على المنور، وكل مرة يدهشه، ويقلقه، ما يفعله فتحي بالمنور، كل يوم يتغير شكل المنور، منذ كنسه ومسحه أول مرة، ثم فرشه بقطع الكرتون، ودق مسمارًا في الحائط علّق عليه الجلباب، بعد أن ارتدى قميصًا أزرق كاروهات، بل وغيّر المصباح الكهربائي القديم، ووضع مكانه مصباح "ليد" يضيء بنور أبيض، شغَله أن فتحي لا يسأله ولا يستشيره ولا يطرح عليه أي فكرة، والعجيب أن

فتحي غيّر قُفل الباب الحديدي الصغير بقفل آخر. رآه عبد السلام أكثر من مرة مستلقيًا على بطانية لونها بُني في بيج واضعًا رِجلًا فوق رجل وهو يتأمل السماء البعيدة. حَسَده على راحة باله، وهو – عبد السلام - الذي يهجره النوم، ويتقلّب طول الليل من جنبٍ إلى جنب، يحسب ويخاف ويُعذر ويُدين ويتمنّى، ويَعضُّ إصبعه غيظًا. دكاكين القماش التي يمتلكها لم تعُد تكفيه، يريد المزيد، في كل بلد دكان، وعلى كل شاطئ شاليه، أحلامه أصبحت عبئًا، تُحطّم رأسه، ومشاكل الابن الكبير، والبنت آمال العانس، والزوجة التي تتحايل بكل الألوان لتكنز النقود بالدولار!! هو يتقلب على جمر النار، وهذا الفتحي يستلقي على ظهره ويضع رِجلًا على رِجل. انتهى من سيجارته فرمى بها إلى المنور، استقرت بجوار فتحي الذي نهض فورًا. وفركها بالشبشب والتقط عُقب السيجارة، وبَصّ لفوق حيث لا يرى أحدًا، وهتف بتوسل: "عيب يا ناس كده!"

***

أنا الآن مطمئن جدًا في هذا المنور، لم يعُد خلفي ولا أمامي مشاكل وبطاقتي الرقمية في حافظتي، وأنا هنا لا بوّاب ولا متسوّل، ولا أريد شيئًا من أحد، والباب المشغول بالحديد سأغطّيه بالكرتون ويا دار ما دخلك شر، ولن أختلط بأحد لا يلزمني أحد، ولا أحد في حاجة لي، فقط سأسأل يومًا ما الأستاذ عبد السلام صاحب البيت عن طبيب عيون يكشف على عينيّ، لعلّه يعيد النظر فأرى وأستوضح الوجوه التي تتشابه عليّ فأخلط بين البنت الطيّبة سهير والستّ السمينة التي أظن أنها تزغر لي كلما رأتني.

***

التحذير من الشخص الذي حطّ فجأةً في المنور كان ما يشغل الآباء والأمهات، التهديد بالخطف يرعب العيال فأصبحوا يطلقون أرجلهم ويتقافزون الدرجات من عتبة البوابة الكبيرة حتى الطابق الثاني. فتحي هو المجهول، وعليهم الحفاظ على أولادهم، ولم يحاول أحد باستثناء كمال الرسّام الذي يسكن

حجرة فوق السطح. وهو من المجهولين أيضًا بالعمارة، هو الوحيد الذي حاول أن يسأل الأستاذ عبد السلام عن فتحي، لكن الأستاذ أنهى الحوار بحسم قائلًا: "ما لِكْش دخل!" أما تهديد البنات بالتحرُّش والاغتصاب فقد أثار دهشة البنات واستنكارهن، لأن فتحي ضعيف النظر وجسده النحيل بالكاد يحمله، ليس سوى شعره الأسود الناعم الطويل الذي يُذكِّرهن بأبطال الأفلام الهندية. حالة من الدهشة الصامتة اجتاحت الجميع، ولم يكن حَلًّا سوى الحذر وتجاهله.

في تلك الليلة الحارة الكاتمة للنفس ببخار الماء، قرر فتحي أن يخلع جلبابه وينام بالفانلّة النصف كُمّ وببنطلون البيجامة ذي اللون الزيتي الواسع جدًا والذي سقط ذات ظهيرة من سماء المنور إلى البلاط، ولم يسأل عليه أحد، واستبعد فتحي أن يمرَّ على الشقق ليبحث عن صاحب بنطلون بيجامة زيتي. فعلّقه على مسمار في الحائط، كل شبابيك المطبخ ودورات المياه والحجرات التي تطل على المنور وترصد بسهولة أي صرصار يمشي على البلاط، ألم ترَ بنطلون بيجامة! بعد أسبوع ارتدى بنطلون البيجامة الزيتي على استحياء لمدة ساعات، ثم خلعه، ثم اعتاد عليه، وها هو يرتديه في تلك الليلة الحارة الكاتمة للنَّفَس، واستلقى.

***

ياه.. شبابيك منوَّرة، وشبابيك مطفأة، شباك يُفتح وسرعان ما يُغلق، سطح يضيء، لا بُدّ أن سيدةً تصنع الشاي وزوجها جالسٌ ممدَّدٌ يتفرَّج على التلفزيون الملوَّن، حلمتُ كثيرًا أن أُمدّد رِجْلي وأنا أتفرّج على تلفزيون ملون، شمّ روائح الطبخ متداخلةً، فأشم رائحة البصل مع الكزبرة مع السمن، لعلهم يعدون لتناول أكل العشاء من بيض وبسطرمة وعسل ولحم ولبن وخبز، لماذا يجري ريقي؟ أنا لا أعرف ماذا يأكلون؟ أنا آكل فولًا وطعمية أو جُبنًا. في الليل الجميل تتسلل أصوات أجهزة التلفزيون، لا أعرف مصدرها، لكنني أتنصّت وأعرف صوت أغاني عبد الحليم حافظ وليلى مراد وشادية، وأسمع موسيقى الضرب والمعارك الخاصة بالملك فريد شوقي، أحيانًا أسمع ضحكات بنات، وأحيانًا زعيق أب،

وأحيانًا صراخًا، وفي آخر الليل تخفت الأصوات. وبعد صمت أسمع صوت موسيقى يتناهى إليّ، كل ليلة ينبعث هذا الصوت الموسيقيّ الناعم، وبعد تخلصي من همومي وتعبي، أحملق في الشبابيك لأميزها، هذا شباك يظل مضيئًا طول الليل. وشباكٌ مظلمٌ دائمًا، وشباك المطابخ يُطفأ ويُضاء من حين لآخر، وهذا الشباك نادرًا ما يُضاء. انتبهت على صوت خافت يتكلم في الموبايل، ثم انفتح شبّاك مطبخ بالطابق الرابع، وأطلّت برأسها للخارج، والموبايل على أُذنها تؤكد بصوت خفيف: "لازم أشوفك بُكرة في الكلية". كانت أول مكالمة تلتقطها أذني في ليل بهيم.

حكايةٌ على كُلِّ لسان

كنتُ مستلقيًا على ظهري، ومعظم شبابيك المنور مفتوحة والضوءُ مرميٌ على جدران المسقط، فيما بعض الشبابيك ترسل ضوءًا خافتًا. الصيف لا يجعل أحدًا ينام، والناموس يمصُّ في دمائنا ويعفرتنا، في البلد كنا نسهر طول الليل بجوار الترعة، ونسمع نقيق الضفادع كأنه غناء، ونشوي الذرة ونأكله ولا نشتهي شيئًا آخَر، نمدِّد تحت شجرة "شعر البنت" ونمدِّد ونحكي عن العفاريت المختبئة في الترعة، ووابور الطحين، ونحكي عن رجال يدخلون بيوت نسوان خلسة، ويشطح خيالنا فنرى العمدة وقد أمسكوا به في جامع وجرجروه للخارج، وضربوه بالنعال لأنه حرامي، وكبِرنا ولم نخرج من الدنيا سوى بالذرة المشويّ الساخن الذي يملأ بطوننا لنعفي أهالينا من أكله.

يااااه.. اللّـه يرحمِك يا أمي كانت تقول: "الدّفَا عَفَا". وهذا الدفا مثل كوز ذرة ساخن، أمي في داخل الدار كانت تجلس بقميص دَمُّور ذي حمالتين، وتنام وهي جالسة وساندة رأسها على الجدار.

صوت؟؟! مَنْ يتكلم في الموبايل الآن، نحن على وشك الفجر، و، استمعتُ الصوت رغم همسه، كانت تقول:

- اسمعني.. افهم.. حكايات الحب والانتحار انتهت..

انتحار!! يا ربي.. هذا صوت سهير. قمتُ، تكوَّرت على عتبة الباب، سهير ستنتحر؟ يا ستّار استر، تسمّعت.. كانت تقول:

- لا أنا فاتن حمامة، ولا شادية، ولا أنت عبد الحليم حافظ.

ما هذا.. لقد صرتُ حمارًا لا أفهم أي شيء، سهير صوتها اختنق، ستبكي.. مالِك يا بنتي؟

زعقتْ حتى خفتُ أن يسمعها أحد:

- افهم.. انتهى كل شيء.. أنا لا لك ولا لغيرك.

ثم سمعتُ نهنهةً وبكاءً.

أغلقَتِ الموبايل ودخلتْ الحجرة، أطفأت الحجرة، حجرة سهير فعلًا غرقت في الظلمة، ثم فُتح الشباك، خُيِّل لي أني رأيتها وخيل لي أن جسدها النحيل تفرَّق على الجدران، سمعتُ نشيج البكاء. طمأنتُ نفسي ورجعت لصهد سريري، وقلت لنفسي: "يا عيني على الحب يا ولاد".

***

سهير هي الابنة الوحيدة للسيدة السمينة، السيدة التي أزاحت ذات يوم فتحي بِرُكبتها وهي تصعد درجات السلم. وفي الحقيقة فكَّر فتحي كثيرًا في الانتقام منها، حتى وجدها يومًا جالسةً على درجة السلم لا تستطيع أن تلتقط نفسها، وقد غمرها العرق، وتمدُّ يدها له، بلا صوت أو كلام، هرع فتحي إليها، وشدَّها لتقف بصعوبة، ولفَّت ذراعها حول رقبته، وصعد بها حتى أمام شقتها، وفتحت سهير، وضربتْ على صدرها، وبعد أن نجح في إدخال أمّ سهير لحجرتها، وجفَّ عرقها، وقالت: "أشرَب"، جلست سهير تُضاحك فتحي لامتنانها له:

- العذر يا عَمّ فتحي.. أمي سمينة.. وكبيرة، لا تنزل إلا للضرورة.. صحوت من نومي على ألم غريب، لا أعرف مكانه ولا سرّه، قلت لها يا أمي أنا مريضة ونحن في حاجة لخبز، وخضار، وطماطم، ونصف كيلو لحم. نهضتْ وشدت طرحتها ولفَّتها حول رأسها، وردتْ عليّ: حالًا.. حمامة. وعندما قلت لها أنادي على فتحي وأطلب منه، هبدت على صدرها: فتحي ليس خادمًا.

ابتسمت أمّ سهير ابتسامةً من يرجع للحياة، ابتسامة مبهجة ومتعبة، واستأذن فتحي.

بعد الظهيرة سمعت صوت الشيخ محمد رفعت وقد لفَّ الشقة كلها بالسَّكِينة والألفة، وعرفت أن أمها بخير وهي تستمع إلى إذاعة القرآن. تمددت سهير ومرت

أمامها صور متعددة لزميلها مالك المدرس معها بالمدرسة، بل وزميل الكلية، الذي كثيرًا ما كان يغني لها أغنية عبد الحليم "أنا لك على طول"، انزلقت دمعة وبسرعة مسحتها بظهر يدها، كان المرض الغامض الذي يحُط من قوتها وتحمُّل جسدها يخيفها، هي تحب مالك وكانت تغني له "تعالَى أقولّك" ولكنها بقدر الحب ترفض الزواج. نهضت فتحت الشباك المطل على الشارع، أطفال ورجال وفتيات، ياااه.. هي فقط، المريضة، والتي لم تَبُح لأحد بمرضها، كيف تتزوج وهي لا تتذكّر بوضوح ملامح وجه أبيها، لكن تتذكر دهشة أمها حين مات الأب وكانت تلطم وهي تشرح للنسوة كيف مات.

- رجع من الشغل.. سِخِن.. مات.

هل يموت أحد لأن درجة حرارته ارتفعت؟!

رجع الأب من الشغل، ارتفعت درجة حرارته، لم يبلع لقمة، تمدّد على سريره ومات. وارتعشت ذقن السيدة السمينة.

سهير.. نحيفة جدًا، وطيبة أيضًا، لم يرَها أحد إلا وهي شاردة، وهي معلمة في مدرسة البنات الإعدادية، هي ومالك يدرّسان اللغة الإنجليزية، مالك أشطر منها لأنه يترجم بعض قصص الأطفال إلى اللغة العربية، مالك أشطر منها لأنه يعطي دروسًا للبنات في اللغة الإنجليزية، ويبرر لها ذلك كأنه أخطأ:

- كي أستطيع الزواج منك!

سهير ترفض أن تعطي دروسًا خصوصية، وتقف في الفصل تشرح وتشرح، وتعلّم البنات النطق، وتوضح وتسأل وتراجع حتى أُغمِيَ عليها ذات مرة بعد الحصة الخامسة.

همست زميلتها المُدرِّسة الأولى في التربية الرياضية:

- إنت تهدّي نفسك.. يا أختي.. لا أحد يستاهل.

وضربت ناظرة المدرسة كفًا بكف، وهي تزعق:

- على مهلك.. من يفلح يفلح لنفسه.

حتى حطّ عليها التعب والمرض، ومَنْ قال إنها نزلة برد، ومن قال إنه ألم في العظم، ومن قال إنه قُولُون عصبي، إلى أن طلب طبيب أشعة وتحاليل، ومطّ شفته وقال للسيدة السمينة: "سرطان"، فوقعت أرضًا وكانت مشكلة إفاقتها في عيادة الطبيب مشكلة، لكن الطبيب همس في أُذن الأم: "أعراض بسيطة، وفي البداية، الموضوع بسيط يا حاجّة".

وتشرّدت سهير في طرقات التأمين الصحي من ممارس لإخصائي لأشعة وتحاليل، النتيجة كبسولات ملونة، وحبوب بيضاء، وحقن بلا جدوى.

وهي قررت أن تقطع علاقتها بصديق عمرها مالك فلا أي جدوى من التمسُك بأوهام، وكانت شُجاعة، لكن الهزال أصاب البدن.

قابلها عبد السلام صاحب البيت على درجات السلم، وبصّ على منظرها النحيل فضاحكها قائلًا:

- يا ابنتي.. أعطي الدروس الخصوصية، وكُلِي الكوارع والفراخ.

تمددت على الكنبة المواجهة للتلفزيون، "دعاء الكروان" مرّةً أخرى، كادت تحوّل القناة، توقفت، هي تبكي دائمًا من أجل هنادي وآمنة، حيث طعن الخال هنادي بسكّين، ورجّع الكروان في السماء الصافية، تشبّثت يدها النحيفة بالوسادة الصغيرة، وتمنّت لو مالك كان معها الآن وأخذها في حضنه وبكى عليها كما بكت آمنة على هنادي.

تأمّلت أمها وهي تخطو ببطء ناحية المطبخ، تمتمت لنفسها: "سكين أو سرطان.. كله موت بلا مقابل". حتى الكمبيوتر لم يعُد رفيقها، الفيروسات قتلته. أحيانًا تبكي لرؤية أمها السمينة جدًا وهي تتحرك بصعوبة بالغة، تمتمت: "أمي

مسكينة أيضًا.. الهُزال والسمنة والسرطان والسكين كلها أدوات للموت".

فكّرت كثيرًا أن تشتري لأمها كرسيًا متحركًا، لكن الطبيب أكّد لها: "المشي مهم جدًا لها..". وكانت تضحك بعد بكاء وتقول لأمها:

- ماما.. اتمشّي وهاتي كوب ماء من المطبخ.

تظل الأم تضحك حتى تدمع وهي تردد:

- حال يضحّك وحال يبكّي.

ومن إجازات مرضية، واعتيادية، وعارضة، ومشاهدة تلفزيون وإعادة قراءة روايات إحسان عبد القدوس ومِن فترات تكون هي الأم للسيدة السمينة، تأخذها في حضنها وثربّت عليها، وتردد أغاني الأطفال، إلى فترات تكون هي الابنة والطفلة والمريضة والمسكينة في حضن السيدة السمينة. حتى وقعت ذات يوم في الحمّام وهي تحاول الاستمتاع بدفء ماء الدُش.

وصارت حكاية على كل لسان.

***

قررتُ قطع علاقتي تمامًا بمالك، هو لا يستحق أن أتركه في مأساة، ونحن في الكلية علمني الكثير، سماع الموسيقى، والسياسة، والصدق. حتى لما التقينا في المدرسة للعمل كمدرسين لم يكفّ يومًا عن التحدث معي، والفطار معًا، والفرح عندما نلتقي، مما جعل علاقتنا بالطبع مشبوهة، واضطررنا أن نعلن أنه خطبني، وأننا مشروع عروسين. أنا أحب أمي ومالك. ولكن ماذا أفعل وأنا سأرحل عنهما.

المطر ينقذ فتحي

هبّت نسمات باردة داخل المنور، فانزوى فتحي في ركن وشدّ عليه البطّانية، ودفس قدميه في جورب صوف، يسميه جورب الشتاء، وبصّ للسماء عاليًا، ما زالت السحب تتكاثف، ثم تمضي كاشفةً عن شمس وضوء يحطّ في المنور.

فتحي قلَب الكرتونة على الأرض فتناثرت الملابس القديمة القليلة، وارتدى فانلة فوقها فانلة ثم جاكيت بيجامة وقميص كاروهات أزرق، وبلوفر رماديّ اللون به بقع ألوان حمراء وزرقاء وصفراء، بلوفر أعطاه له كمال ساكن السطح، الرسّام حاملًا كل ألوانه، لكنه سيحميه من برد هلّ مبكرًا. غير أن الأولاد والبنات والأطفال ضحكوا حينما شاهدوا فتحي بكوم ملابسه الغريبة. وصاح طفل: "الأراجوز"، وأخذ الجميع يصفّق ويضحك. ويرددون بسعادة غريبة: "الأراجوز.. الأراجوز".

كان رعب فتحي من البرد والمطر رعبًا قديمًا من أيام القرية وبيته الفقير وأبيه الكفيف، والمطر المتساقط عليهم من سقف البيت، وكان كلٌّ يختبئ في ركن.

سقط المطر فعلًا غزيرًا، في منتصف ليلة سوداء، وكان صوت الحاجّة نعمات يصل إليه وهو مختبئ تحت الكرسي بجوار ماسورة المجاري، كانت تصرخ في الموبايل.

- يا رجل يا ناقص.. أرسل فلوس حتى أربّي الولد.. يا رجل..

ثم سَيل من الشتائم مع سيل من المطر.

وأُضيئت حجرة آمال ابنة صاحب البيت، تجاوزت الأربعين ولم تتزوج، ورغم عزلتها في حجرتها، فإن حجرتها نظيفة ومُرتّبة بها "اللّاب" وسمّاعات خارجية تسمع فيها الأغاني والموسيقى، وهي الوحيدة التي تعترف بأن كمال الرسام الساكن في الحجرة فوق السطح، فنّان، عندما دفعها فضولها ذات يوم خريفي،

وصعدت للسطح بصفتها ابنة صاحب البيت، وكان كمال في حجرته ذات الباب المفتوح جالسًا يرشم في لوحة أمامه، حين رآها ارتبك، نهض: "تفضلي".

دخلت بفضول حجرته الواسعة والتي بها سرير وثلاثة كراسي من الخشب اللامع، في الركن مكتبةُ الكتبُ محشورةٌ فيها حشرًا، وشمّاعة عليها مجموعة ملابس كيفما اتفق.

- تفضلي.

- أأنت رسام؟

وبدأ الحوار ولم ينتهِ، كمال تجاوز الخمسين من عمره، سوّى معاشه في الخمسين، واختار أن يرسم. أحبطها أن كمال ليس وسيمًا، فهي لا تحبُّ الشارب الكثّ، ولا الكَرِش الصغير الذي يطلُّ حين يجلس.

تبادلا التعارف، وجذب نظرَها لوحةٌ لوجه نسائي، ألوانها قاتمة، وبها الكثير من الظلال.

فَرِح لأن اللوحة أعجبتها، وأعرب عن سعادته بذائقتها. وكانت المرّة الأولى التي صعدت فيها إلى السطح.

آمال علّقت اللوحة على الجدار المقابل لها، وهي التي لم تحصل على الشهادة الإعدادية، واكتفت بحجرتها وفلوس أبيها، راضية عن نفسها، صامتة، ومنعزلة تمامًا عمّا حولها.

في الصباح كان المنور بحيرةً من ماء، قام فتحي وشال غطاء بير الصرف فجَرَت المياه داخل البئر، وصار البلاط نظيفًا، وتفرّقت السُحب، وتهادت الشمس بدفء، وانفتح شباك، وأطل عماد، كان منفعلًا.

- يا عَمّ اتركني في حالي.. لا أريد أن أسمع صوتك مرة ثانية.

بَصّ لتحت، وألقى نظرة على المنور فرأى ما أغرقته المياه وبلّلته من هدوم

فتحي حتى شبشبه. أغلق الشباك.

بعد دقائق، دفع عماد الباب الحديدي للمنوَر، ووقف مذهولًا، وسأل فتحي:

- كيف نِمت الليلة الفائتة؟فتحي يرتجف ويردّد ببساطة:

- تحت المطر.

انتاب عماد غضب، وعضّ شفته السُفلَى، إشفاقًا على فتحي وتمتم:

- هذا ليس إنسانيًا.

وبحماسة الشباب أخرجَ الموبايل، واتصل، لم يردّ أحد، اتصل مرةً أخرى، ولعَن شبكات المحمول في عمارتهم، إذا أردتَ التحدُث عليك أن تلتصق بالشباك وتصرخ! ردّ الموبايل الآخَر.

كان عبد السلام شخصيًا، أباه، يخرج من الشباك بالطابق الرابع، رآه فتحي، ورآه عماد.. نادى عليه عماد:

- بابا!

ردّ عبد السلام بغيظ:

- نعم!

قال عماد بعصبية:

- انزل.. أريدك!

شخط عبد السلام، وسمعه فتحي وعماد بدون موبايل:

- أنزِل!.. اطلع أنت يا حمار.

طلع عماد. واستغرب فتحي، الذي شدّ قفصًا صغيرًا من الجريد وجلس عليه، ثُم بصّ للسماء التي تلبّدت مرةً أخرى بالشحب السوداء.

سمع فتحي جلَبة، ثم رأى عبد السلام صاحب البيت وخَلفَه عماد، وحنان، والحاجّة نعمات. عبد السلام دَفَع الباب الحديدي الصغير بِقدمه، فانفتح، وقف فتحي متصورًا أن نهايته جاءت على يد عماد.

عبد السلام بَصّ هنا وهناك وفوق، ودخل كمال الرسام، وسأل:

- خير؟!

قال عماد:

- دخل الشتاء، وفتحي سيغرق في المياه ويموت من البرد!!

بهدوء بالغ قال كمال:

- نبني له حجرة صغيرة.

ثم ضحك وأردف:

- هو في حجرة صغيرة في منور، وأنا في حجرة صغيرة فوق سطح!

انزوى عبد السلام صاحب البيت بعيدًا، وأخرج الموبايل، وسَمِعه الجميع:

- آلو.. الأسطى صابر النجار.. تعالَ في الحال.

كمال فهم وابتسم.

***

آه يا آمال لو عندك حجرة صغيرة من خشب أو حجارة في قلب الصحراء، أو وسط الجليد، أو على شاطئ بحر، كنت أرتاح وأرمي هموم عمري، آه لو عندك يا آمال حجرة تطير فوق السُحُب، لا يحمل أحد همّي ولا فرحي.

هكذا حدّثت آمال نفسها، والدمعة انزلقت ولم يرَها أحد، وضبطت نفسها تحسد فتحي على حجرته في المنور. همست بفزع: "يا نهار أسود!!"

حجرةٌ من خشبٍ تطلُّ على سماء

أصبح عندي حجرة من الخشب بسقف صاج معتبر، بها كنبة عليها مرتبة رفيعة، ووسادة صغيرة منفوخة، أعطتها لي سهير ذات غروب، وأفرش البطانية البيج دائـمًا على الكنبة فتعطيها جمالًا وأبهة. بجانب الكنبة التي هي السرير تربيزة أعطاها لي عماد وهو نفسه الذي أعطاني الكرسي القديم، وفوق الكرسي لصقت بالنشا على الجدار الخشبيّ الحُبيبيّ الزملكاوي أبو الكباتن حسن شحاتة، ورغم شاربِه الكثّ أرى ابتسامته لي كل يوم! ولّت أيام رؤية المباريات في مقهى خالِ أمّي ولم يكن يأخذ ثمن المشروب، وفي الحقيقة كنت لا أشرب، وحتى كنت لا أجلس على كرسي، كنت أجلس على الأرض، وأنا أرقص وأردد "حسن شحاتة يا معلّم". على التربيزة أشيائي المهمة جدًا: مرآة صغيرة أرى وجهي وأمشّط شعري الأسود اللامع، الناعم جدًا الذي كان يحسُدني عليه العيال في القرية، وماكينة حلاقة تظل عندي بالأسابيع فأنا قلّما أحلق ذقني، وعلى التربيزة ملعقة كبيرة لزوم الأرز والملوخية، وسِكّين تساعدني في كل شيء من أول تقطيع الليمونة، حتى تنظيف البلاط أمام حجرتي الخشبية التي تُشبِه الكُوخ - هكذا قال لي الأستاذ فتحي الناظر – وثلاثة صحون صاج بها رسم لورد أحمر وأزرق يسرُّ العين، أحيانًا يكون عندي مشط، يظل بالشهور حتى تنكسر أسنانه، فأمشّط شعري بأصابعي لمُدة شهور، وهكذا لا ضرورة قصوى للمشط مع شعري الأسود الناعم، الذي سبّب لي الكثير من المعارك مع العيال. أما تحت الكنبة ياه.. ياه.. ثلاث حِلل ألومنيوم بأحجام مختلفة، اشتريتها من القرية قبل المجيء إلى المحلّة الكبيرة، كانت بِرخص التراب، وفي الحقيقة لا أستعمل سوى حلّة واحدة، فأنا أضع قطعة اللحم – إن وُجِدت – مع الخضار والماء والملح والفُلفُل الأسمر، لكن أطعم وأجمل أكلة أكلتها كانت البطاطس باللحم والبصل الخارجة من الفرن وما زالت ساخنة وقد أعطتها لي سهير وهي تبصّ حواليها كأنها لصّ. وتحت الكنبة كيس بلاستيك به نحو عشرين كيس بلاستيك آخر، وفي الركن جزمة

الشتاء، وصندل الصيف والشبشب البُني.

وعلى التربيزة التي تَسَع مائة صنف وصنف وابور سبرتو أهتمُ به اهتمامًا خاصًا إذ ألُمّعه بِقشر الليمون كل أسبوع لِيلمع كنحاس حقيقي، وبجواره علبة الكبريت التي أحافظ عليها من البلل، وأحتفظ بعيدان الكبريت فأنا أستخدمها مرارًا وتكرارًا، ثم الكنكة الألومنيوم التي أدعكها بالرمل فتضوي مثل فضة، وأنا صغير كنت أمسك بجلباب أمي ونذهب للترعة، على حافة الترعة تجلس بالحلل والطشت العالي وأطباق الصاج وبالقشّ والطين تَدعك وتغسل وتغمر كل حلة وصحن على حِدَة في ماء الترعة، وتُسمّي عليه، ثم تضعها داخل بعض، وتضعها على رأسها وتمشي وهي تشتم وتلعن أبو الدنيا، والحقيقة أنا كنت زعلان من الدنيا جدًا، وسألتها ذات مرة ما هي الدنيا. بصّت لي بحزن، وتمدّدت على الحصيرة، وثَنَت ذراعيها وأراحت برأسها ولم تَنم.

أما علبةُ رشّ الناموس فهي تحت الكنبة، كما حذرتني سهير أن أبعد الرشّ عن النار، تقصد السبرتاية، علبة رش الناموس، أعطتها لي سهير ابنة السيدة السمينة ذات يوم مشهود، حيث وقفت أمامي وابتسمت، وكان وجهها منورًا سعيدًا مثل طفلة، وقالت بطيبة:

- الناموس نَقرَش وشّك يا عمّ فتحي!

وبعد رشة أو اثنتين أنام في نعيم. ياه، في القرية كان الناموس يأكلنا، وحين نعدُّ له الدُخَان من حريق الحطب أو الجِلّة كانت الكُحّة تُهلكنا. رشة ورشة وأنام في نعيم، وأحلم كثيرًا، أحلم بدخان الفرن، وشَيّ الذرة، بقشّ الأرز، والترعة الضيّقة، ونقيق ضفادعها، لكن لم أحلم بأمي أبدًا رغم اشتهائي أن أراها، وأحلم بسهير دائمًا وهي تعطيني قميص كاروهات أزرق، وكنت أشمُّ رائحة شيح.

***

حجرة فتحي ستكون نقلة مهمة في عمارتنا، فتحي نفسه نقلة مختلفة في

عمارتنا، قرّرت أن أصاحبه وأشارك في هذا التحوُّل المهمّ بعد سكوت مميت.

- يا زفت.. يا عماد!

أبي يناديني وأنا في حالة نشوة بالمطر والنهر، على أي حال سأدخل لدفء سخيف.

عماد يبكي سعيد مهران

بعد أن أُذّن لصلاة العشاء، كنتُ قد انتهيت تماما من أكل برتقالتين، وقطعة جبن، ورغيفين من الخبز البلدي، وقبّلت يدي وِشّ وضَهر، وحمدت اللّـه، وبينما أتمدد سمعت صوت عبد السلام أفندي صاحب البيت يشخط ويزعق، في الموبايل طبعًا:

- عماد زفت.. عماد عيّل، لا اتفاق مع عيل؟! الدكاكين باسمي أنا.

ثم قال منفعلًا جدًا:

- سأموت ناقص عمر!

وضعت رأسي على الوسادة، ودعكت عيني بظهر يدي، فسمعت بالكاد نقرات على باب المنور، كأن أحدًا يهمس لي أن أفتح، ففتحتُ.

كان عماد تلميذ الثانوي، مرتديًا "الترِنج" والشبشب، واستأذن في الدخول ولم يجلس على الكرسي الوحيد في المنور بل شدّه لداخل حجرتي الخشبية، حشَر الكرسي بين الباب والكنبة وجلس ثم قال:

- ممكن أجلس معك.

استغربتُ، وأجبت نعم، وأضفت، لكن ليس عندي شاي، وَضَع يده في جيب الترنج وأخرج علبة سجائر، وقال:

- سأشرب معك سيجارة.. هات كبريت.

انحنيت وسحبت علبة الكبريت من جنب رِجل الكنبة، أخذها بلهفة، وأشعل السيجارة، كنتُ مذهولًا من تصرُّف هذا العيّل، وبحلقت في كتابه الذي في يده، سألته بودّ، لأشجّعه:

- أتريد أن تذاكر هنا يا عماد؟!

ابتسم، وفتح سوستة جاكت الترنج الأزرق، وبانت فانلة برتقالية اللون، ووضع رِجلًا فوق رجل، ونفخ الدخان في وجهي وقال:

- لا.. سأجلس هنا لأقرأ.. ليس كتاب مدرسة.. هذه.. رواية.. قصة.. قصة اللص والكلاب.

هتفتُ فرحًا، لأنه أعاد لي ذكرى مشاهدة الفيلم في التلفزيون وكان نظري سِتة على ستة.

- شكري سرحان.. المجرم.. الذي قتله البوليس وهو ينادي ويزعق: يا نور.. يا نور.

سحق عماد عقب السيجارة بِشبشبه، ثم مال عليّ وهمس:

- سعيد مهران ليس مجرمًا!

اعتدلتُ في جلستي محتجًا، وقلت بحماس:

- لا.. هو مجرم.. قتل وقتل.. البوليس كان يطارده يا عماد.

عماد ردَّ بأسف:

- سعيد مهران.. نعم سعيد مهران.

ثم أشار للكتاب:

- هذه رواية اللص والكلاب، للكاتب نجيب محفوظ.. هل تعرفه؟

هززت رأسي:

- لا!

رجع عماد للوراء ونفخ، ثم قال:

- سعيد مهران، دخل السجن وخرج ليجد نبويّة.. نبوية زوجته تزوجت من

تابعه عليش سِدْرَه، وابنة سعيد رفضت أبوّة سعيد، وحين اتجه ليقتل عليش قَتَل شخصًا آخر.

الحقيقة الحكاية شدتني، رغم أن شكري سرحان فعل هذا، ولكن عماد كان متأثرًا جدًا. وردَّ عماد:

- القَدَر الأعمى!

أشعل عماد سيجارةً أخرى، عبَّأ الحجرة الضيِّقة بالدخان، اقتربتُ منه، كان وجهه حزينًا للغاية. ثم أكمل:

- الفشل بالمرصاد للغلبان سعيد مهران!

وضع الرواية على الكنبة ثم قال بغيظ:

- حتى رؤوف علوان الذي علّمه مبادئ وخانها، وقف ضده وحين أراد قتله قتل شخصًا آخر. لم يُفلح في أهدافه لكن الجريمة ثابتة.

اعتدل ثم قال باهتمام، وكأنه لا يتحدث إلى فتحي كأنه لا يتحدث لأحد:

تعرف.. أبي لم يفعل شيئًا سوى تكديس الفلوس، وكلما أضاف دكانًا لدكاكينه رَغِب في دكاكين، غالبًا لا يأكل معنا، كل أكله في الشغل غداءً وعشاءً وفطورًا، أمي هي التي تفعل كل شيء منذ الرضاعة والمذاكرة ونظافتنا، والطبيخ والغسيل والنظافة، هي التي يتنقل الروماتيزم في جسدها من مكان لمكان، ولا يشكو من ضغط الدم والسكر غيرها. لماذا يصيبها المرض الأعمى. تصوَّر أبي عبد السلام بك، ظل يكره آمال حتى أصبحت عانسًا ويُعيِّرها طول الوقت بأنها مِثل البضاعة البايرة، وأمي ليل نهار تبكي حظَّ ابنتها.

وحنان الطيِّبة تلمِّع له الحذاء ثم تدير رأسها بغضب.

وأنا وأبي مثل سعيد مهران والقَدَر، لا أُفلح في مواجهته، ودائمًا أنكسر.

***

كان صوت آمال واضحًا واثقًا، تشعر فيه بالبهجة، وهي تردّد:

- نعم يا فنان.. ما أخبارُك؟! اسهر مع لوحاتك وألوانك.. إيَّاك وشغل البال.

تصمت، ثم تردد بهمس وفي تساؤل:

- تضحك أم تبكي؟

***

نهض عماد، فنهض فتحي ودسّ رجليه في الشبشب، فتح عماد الباب وخرج، وفي يده الرواية.

ترك فتحي الباب مفتوحًا ربما يطرد الهواء الدخان، وربما يطرد الكلام الذي لم يفهمه من عماد، ثم نزل على ركبتيه وأخذ يتحسَّس بيديه أرضية الحجرة ويلمُّ أعقاب السجائر، وشمّ يديه وتأفف، رمى نفسه على الكنبة، وتكرر أمامه مشهد شكري سرحان وهو يصرخ: "يا نور.. يا نورا!"

***

فُتح شباك حجرة حنان، كان الموبايل على أُذنها، وانتبهت لأختها آمال في الشباك المجاور، تراجعت ببطء محبطة، ثم أغلقت الشُّبَّاك بهدوء، خوفًا من انتباه آمال التي كانت تردد: "يا فنَّان".

إعتماد تدخل الرواية

كان فتحي جالسًا القُرفُصاء، ساندًا بظهره للجدار، بحيث يراقب باب المنور الحديدي الصغير "المحندق" كما تقول سهير. وكلما خطر على باله سهير يَئِس، وكلما تذكّر عماد يضرب كفًا بكفّ. خرج الصرصور من البلاعة الصغيرة المدوّرة، كاد ينهض ليسحقه بقدمه، غير أنه تكاسل في اللحظة الأخيرة وظلّ يتابع الصرصور الذي همّ في سيره بسهولة وخرج، ربما لأي قَدَم لطفل تدوسه. وقَبل أن تنسحب عيناه عن الباب الحديد رآها. تلك الفلاحة الممتلئة قليلًا، ذات الوجه القمحي اللون الذي تسكنه ابتسامة لا تبرحه، اسمها إعتماد وربما دخلت الرواية بالصدفة، فهي تحمل الطشتية الألومنيوم الكبيرة على رأسها، وتمرُّ على البيوت لتبيع الجبن القريش واللبن الجاموسي وأحيانًا السمن، وحين دخلت بيت الأستاذ عبد السلام لفَت نظرها المنور بل ورأت فتحي جالسًا القرفصاء ساندًا ظهره للحائط، كادت تمشي لكنها رجعت، فخِبرتها في السوق تهمس لها: "ربما هذا البواب - كما ظنَّت - يكون مفتاح هذه العمارة"، فلمعت ابتسامتها، وقالت: "يسْعِد صباحك".

***

استغربتُ هذه الابتسامة وهذا الوجه المليح، نهضتُ وكدتُ أنكفئُ وشددتُ الترباس الحديدي الصغير وقلت لها: "تفضّلي"، قالت: "حُطّ التشطية عن رأسي".

لما ساعدتها في حط الطشتية على الأرض، جلست، ولمّت جلبابها الزيتي اللون وسألتني:

- جبنة قريش أو لبن؟!

شدت الطشتية للظل، وزحفت للخلف، وقالت إن هذه هي المرّة الأولى التي تدخل فيها هذا الشارع، وهذا البيت، وقالت إنها لم ترَ سحنتي في الجهة كلها إلا اليوم. ضحكتُ أنا الفلاح مثلها، وبكل ذكاء سألتها عن بلدها، حدثتني عن قرية

سمعت ذات مرة عن حريق التهمها، فابتسمث، وقالت: "هي بعينها". وإن سبب الحريق كان من بيت جدتها، رحمها اللّه، عندما كانت تخبز في الفرن، وامتدت النار من الفرن للقشّ للحطب للبيت للبلد. وظلت تضحك كأنها نكتة قديمة. ولما سألتها عن أحوالها، مدّت رجلها اليمني، ونَظَرت فردة الشبشب، وقالت:

- أنا إعتماد بنت الشيخ موسى كان خفيرًا، لا، كان أكبر خفير، وشنبه يقف عليه الصقر، لكن طول العمر لا يبلغ الأمل، طول العمر أتى بالمرض، وضاع نظره، وجلس بجوار أمي العجوز التي تنتقل مستندةً على الجدران لضعف الساقين، لكن أبي كان قد جمع من شغلته صفيحة فلوس، واشترى بها جاموستين، وصارت أربع جواميس وعنزتين، وفراخًا فوق السطح لا نعرف عددها. أتريد الجبن القريش، أم زجاجة لبن؟ كنّا زمان نبيع اللبن في الحلّة، وندلقه في حلة الزبون، لكن الدنيا تتطور وها نحن يا سي فتحي نلمُّ الزجاجات البلاستيكية اللتر واللترين بعد أن يرميها عشاق المشروبات الباردة، وأصبحت الزجاجة البلاستيكية هي العبوة والمعيار. معي بيض بلدي، لكنه محجوز للحاجّة أم يسرية، أنا لي زبائن، لست بائعة أخبط على الأبواب لكني اليوم دخلت شارعكم غلط، وعمارتكم غلط.

قلت لها:

- ولماذا غلط ياست إعتماد، الصدفة خير من ألف ميعاد، ومعرفة الناس كنوز.

***

ما هذا؟ واللّه عال العال يا فتحي، سيّدة معك في المنور، والضحك يصل للدور الخامس، ما كل هذا الفرح؟! لم تحدث معك يا آمال أن يجلس معك أحدهم ويفرح ويضحك هكذا؟! وكيف يأتي الفرح وأبي يحذرني من سنواتي القادمة وهي تحمل لي الأمراض والوحدة والألم. أنا لم أرفض الزواج، أنا لم أجد أحدًا لأتزوجه!! ما هذا؟! فتحي يقدّم للست كوبًا من الشاي يا فرحتك يا ستّ.

***

أخرجت آمال الموبايل، وضعته على أذنها، وقالت بصوتٍ لم يلفت انتباه إعتماد، وسمعه فتحي بوضوح:

- ألو يا فنان.. ما زلت نائمًا!!

***

إعتماد تنهدت ومالت وسألت:

- هه.. جبن.. أم لبن!

رأى فتحي عينيها العسليتين تشعَّان بهجة، ودهش من عقد كهرمان يطوِّق رقبتها.

***

خرجت حنان بنصفها الأعلى من الشباك، وعلى أذنها الموبايل..

- أيوة يا حازم.. نعم.. حازم..

***

بَصَّ عليها فتحي، بلا اكتراث، حنان كثر خروجها بنصفها الأعلى من الشباك حتى يلتقط الموبايل شبكة اتصال، مال فتحي إلى إعتماد التي أصبحت تتردد كل أسبوع على البيت، وصارت زوجة الأستاذ فتحي مدير المدرسة الزبونة الرئيسية عند اعتماد، فهي تطلب منها الجبن القريش، والسمن، والبيض البلدي، وخاصة أن زوجة كريم ابنها تشتري بكميات كبيرة كل أسبوع، وكريم في السوبر ماركت الشهير جالسًا إلى مكتبه يسأل في الموبايل عن آخره أخبار البيض البلدي.

***

- والنبي أنت الخير والبركة!

- كتّر خيرك يا إعتماد.

- لا تقُل هذا يا فتحي.

- قطع جبن قريش، وبيض، وسمن، كله بلا مقابل.

ابتسمت إعتماد، والتمعت عيناها العسليتان، مسّد فتحي شعره الناعم، وارتبك، اقترب رأسها من رأسه. وسألته:

- قُلْ ما في نفسك.. أجيب لك جاموسة!

ضحكا معًا.

***

تلصّصت آمال من وراء الشباك.

وبحلق كمال الرسام طويلًا فيما يراه، أعجبته شخصية إعتماد من حيث شكل الفلاحة، والملامح، لا يعرف لماذا تذكّر الفنان محمود سعيد ولوحة بنات بحري.

***

همست آمال لنفسها وهي تختلس النظرات، يضحكان بلا توقف. طبعًا.. من أين سيأتيهم الهمّ. عيني عليّ، قادم السنوات ستحمل لي العلل والمرض كما يقول أبي.

***

- قُل يا فتحي.

رددتُ عليها، وأنا مكسوف:

- جوز حمام.. أربّيهما معي في المنور!

اتسعت ابتسامة إعتماد التي تحبُني. ومشت.

***

في الأسبوع التالي، دخلت إعتماد المنور، فجرى إليها فتحي كالملسوع، كانت الطشتية على رأسها، وبيدها الشمال قفص جريديّ صغير به حمامتان صغيرتان.

قالت إعتماد:

- زوجان من الزغاليل.. صغار الحمام.. راعيها وستفرح بهما!

أخرجت الزغلولتين، احتضنتهما، كان لرائحتهما رائحة الأطفال، وريشهما الأبيض ناصع البياض، نقرت زغلولة في إصبعي.

ويتعالَى الهديل

وقفت سهير تبصُّ على منظر القفص الجريديّ، والزغلولتين اللتين تتقافزان من الأرض إلى القفص بصعوبة، كل زغلولة على حِدَة ترفرف، وتضرب بجناحيها الهواء، كأنها الغريق وسط مياه عاتية، ثم بكل عزم تقفز إلى القفص الجريدي، فيما يبتسم فتحي وهو يرشُف الشاي ويتابع محاولات الزغاليل في الصعود والهبوط.

***

ياه.. كبرت الزغلولتان، صارتا حمامتين وصرتُ أحب التنصُّت لهديل الحمام في الصباحات الباكرة، يرتفع الهديل، كأنه تسبيح، كأنه تهدُّج، كأنه مغازلة، كأنه طلب الوُدّ، سألت نفسها: هل ضاعت منكِ اللغة يا سهير؟!! ياه.

***

يتعالى هديل الحمام.. يحكي ذكريات، بالكاد أراها مضبَّبة، تبعث على الفرح وعلى البكاء.

***

يتعالى هديل الحمام، فيحطُّ في القلب صوتك "يا مالك"، يطبطب على قلبي الموجوع، وجسدي الذي تأكله الخلايا المعطوبة.

***

ياه.. أسابيع وكبرت الزغلولتان، وأصبحتا حمامتين، الحمامة صاحبة اللون الأبيض أجمل، وصاحبة اللون الرماديّ هادئة وطيِّبة، وحزينة مثلي، هل تفكرين في الموت، هل تفكرين في بيضتين تعيدان دورة الحياة؟ أنا لا أفكر في ابني ولا حتى في زوج.. خذلتك يا مالك لأكسر حزنك.. آه يا منير، أغنيتك تجتاحني بسيلٍ من الأسي:

"يا حمام بتنوح ليه.. فكرت عليّ الحبايب".

وأنت في قلبي يا مالِك، هيّا يا هديل الحمام لفّني في شجنك.

***

يتعالى هديل الحمام فينهض عبد السلام من سريره، يقوم كمَنْ لسعته عقربة، ينفخ، في نار تلسعه، يدسُّ قدميه في الشبشب، ويبصُّ في الموبايل الذي تشير ساعته إلى السادسة صباحًا. ينفخ، وينادي:

- يا زفت!

***

يتعالى هديل الحمام، فأجري إلى أبي وهو ينادي، يا زفت، لأطبِطب عليه، وأخفّف عنه:

- يا أبي هديل الحمام جميل!

يصرخ فيّ:

- يركبني ستون عفريتًا حين أسمع الهديل.

أضاحكه:

- يا عَمّ بابا.. في انتظارك الفطور، البيض والزبدة التي نشتريها من إعتماد والجبن القريش، والعسل الأبيض، وقطعة فطير برائحة سمنتها.

ينفخ.

- يا أبي.. هل نذبح الحمام، أم نطرد فتحي؟!

***

ويتعالى هديل الحمام!

فتخرج ابنته آمال برأسها من الشباك، وتكاد ترقص وهي تغني، وهي ترمي وراء ظهرها قلق الأب وعصبيته وادّعاءه بأن الهديل يُركبه ستين عفريتًا.

يتعالى هديل الحمام!

فتغني آمال وهي تكاد ترقص، مقلّدةً صوت عفاف راضي وهي تغني:

"طِيز يا حمام الدّوح.. وزُوح لروح الرُّوح".

تغني وهي لا تتابع الحمام، تغني وهي تبصّ لفوق، للطابق الخامس، تغني عبثًا وهي متأكدة أن كمال في سابع نومة، فقد اعتذر كثيرًا لأنه لا يسمع الهديل، لأنه في حجرة فوق السطح.

***

نادى عليه من الخارج:

- يا فتحي.. يا فتحي!

تهلّل فتحي واتجه إليه مُرحِّبًا:

- اتفضل يا سي كمال.

ورغم شَعر كمال الخشن، وجحوظ عينيه، وكَرِشه الصغير، فإن فتحي لا يقول له إلا:

- يا نسمة دارنا.

دخل كمال ومعه كرّاس رسم كبير الحجم، وقلم وحيد، وحامل صغير، جلس، أعطى ظهره للجدار، بحيث يواجه القفص الجريدي، وتنهّد، وهو يقول لفتحي:

- صباح الحمام.

ويتعالى هديل الحمام!

- سأرسم حمامة فوق اللوحة، ولتكُن الحمامة الرمادية، نعم.. نعم، هي متعددة الألوان، ولن أرسم حمامة مثل حمامة بيكاسو، ولن تحمل في منقارها غصن الزيتون، وإنما سأبحث في ريشها عن ريشة تزهو بلونها وصعوبته ومعناه.

هذا أول خط في اللوحة.

لماذا يا فتحي أتيت بالحمام، لقد أيقظ سكان البيت، حمامتان صغيرتان تهدلان فتبعثان كل الفرح والشجن والرغبات.

لماذا يا حمام؟

***

آمال فتحت الشباك فرأته، ابتسمت ابتسامة واسعة، كمال لوَّح لها مبتسمًا.

كمال قال:

- آمال طيبة، طيبة.

زرَّ عينيه، وهو ينظر باتجاه الحمام، وقال في همسٍ لم يسمعه فتحي:

- لكنها طيبة كذرَّة رمل في البحر الهائج!

***

آمال قالت وهي تبصُّ على الحمام وكمال:

- لتأتِ الرياح بما لا تشتهي السفن!

ثم غنت كأنها تهمس في أذنه:

"طِيز ياحمام الدّوح.. وزُوح لروح الروح".

***

ويتعالى هديل الحمام.

كنت مندهشًا من موضوع الحمام، لست كأبي، أنا عماد وكفى، ولكن في حالة الحمام، وأهل البيت، غريب جدًا، خبطت على باب حجرة فتحي الخشبية، دفعت الباب دفعة خفيفة، فنهض والنوم يغلبه، ترنَّح قليلًا، وأخذ يعبث ويبحث بقدميه عن شبشبه، حتى دسَّ قدميه. دعَك عينيه بظهر يده، وقال في صيغة سؤال:

- عماد! خير.. صباح الخير.

قلت له:

- الجميع يصحو على هديل الحمام.. ما عدا أنت.

رَدَّ بسهولة:

- حاجة غريبة عليكم، لكني تربَّيت بين الفراخ والحمام والبط، كلنا نحطّ على الأرض الطين وننام!

قلت له:

- حرام.. حرام.. هل تسمع عن رواية الحرام ليوسف إدريس.. فيلم الحرام؟

ردَّ بذات السهولة:

- نجيب ويوسف.. أهما أصحابك؟! لا أعرفهما.

نظرت إلى القفص الجريدي المعلَّق على الجدار، بهدوء تقف الحمامتان وبحركةٍ ضعيفةٍ تحرك حمامة رأسها يمينًا ويسارًا كأنما لتنصت.

وضعت يدي في جيب بنطلوني الجينز، وأخرجتها بفلوس ورقيَّة ودسستُها في يد فتحي، وقبل أن يستغرب، قلت:

- هات أكْل للحمام.

ويتعالى هديل الحمام!

***

في الصباح الباكر، سمعت هديل الحمام، لا بُدَّ أن الذَّكَر الآن يلفُّ ويدور حول الأنثى، أغنية لا تتوقف ناعمة، لكنها سرعان ما تغرق في صهد النهار.

انهضي يا آمال وافتحي الشباك، لعلَّه فوق السطح لم ينَم، وافقت على هاجسها ونهضت، فتحت الشباك، وخرجت بنصف جسدها، وبصّت لفوق، وجدت حجرته مضاءة. همست لنفسها:

- لا بأس.

ورددت:

- اليوم طويل.. طويل، والحياة خاوية!

ارتدت ملابسها كيفما اتفق، بنطلون جينز وبلوزة، ودسّت قدميها في صندل، أمام المرآة صفَّفت شعرها بيدها، لاحظت أن وجهها صار عجوزًا، خطفت مفتاح الشقة وهربت بسرعة من صورتها ومن تفكيرها.

خبطت خبطتين، وانتظرت، خافت، استدارت لتنزل من السطح. لكنه فَتح الباب بذات ملابسه التي لا يخلعها لفترات، تي شيرت كُحليّ اللون، وبنطلون رصاصي اللون. تهلَّل بدهشة ودعاها للدخول.

***

جلست على الحصيرة وهو يعدُّ لها الشاي الذي طلبته، وفتحت عينيها بانبهارٍ على الحمامة الرمادية فاردةً جناحيها بعرض اللوحة، شهقت:

- ستنتهي منها!

قدَّم لها الشاي:

- قريبًا.

دار الحديث رتيبًا ممزوجًا ببعض الحزن، وهمس:

- أنا من ريف بعيد.. لم أرَ عائلتي من سنوات!

سألت وهي تتأمل عينيه الجاحظتين:

- هل لا بد من عائلة؟

نهض، وقال لها:

- اسمعي.. اسمعي..

شغَّل الموبايل وسحب بإصبعه السبَّابة أيقونة، فانطلق صوت ناظم الغزالي يهزُّ كيانها، والبيت، والعالم، والحمام يهزُّه بنبرة حزن قوية عذبة حانية:

"أقول وقد ناحت بقربي حمامة..

أيا جارةً لو تشعرين بحالي"

كان يدخن سيجارته، وبدا لها أن عينيه الجاحظتين تدمعان. واصل "ناظم" أغنيته:

"لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة

ولكن دمعي في الحوادث غالي"

لكنها بكت وبصوتٍ جعل الحمام يكفُّ عن الهديل!

ويتعالى هديل الحمام!

***

شهور قليلة وصارت الحمامتان أربع حمامات، ويتعالى الهديل، تتحول حياة فتحي إلى غناء وزغاريد.

يطير الحمام، ويحط الحمام!

وصار في يد فتحي عَلَم بصارية طويلة من أعواد البوص.

يطير الحمام، ويحطُّ الحمام!

والكل يبصُ من عَلِ للمنور الذي تحول إلى هديل وتغريد ونُوَاح وغناء. وجاءت العصافير، وحطت على أرضية المنور، تلقط الحبوب الصغيرة، وترفرف ويزداد عدد العصافير، ورفرفاتها عدّت لحظة من القوة والفرح.

والكل بات يعيش في متابعة الحمام والعصافير، في ذلك المنور، الكل يسمع في الصباح الباكر زقزقة العصافير، وهديل الحمام.

فصيلةُ الدّمِ O

فتحي كان ساندًا بظهره إلى جدار حجرته الخشبية مُمدّدًا رجله على البلاط، ويتصفّح باستمتاع مجلة الفن التي أعطاها له عماد. يدقّق في الصور ليرى، وأدهشه أن الفنانات خاصةً يستمتعن بوافر الصحة وابتسامات دائمة. فتحي رغم انشغاله شمّ رائحة قديمة يعرفها، فرفع رأسه، فابتسمت إعتماد الواقفة على عتبة المنور. وشدّ ما أذهلته العنزة المربوطة في حبل رفيع ينتهي في يد إعتماد التي ابتسمت، نهض وجرى وشدّها من يدها لداخل المنور، وسأل: "ما هذا يا إعتماد". وردت: "عنزة تونّسك.. وتشغلك، وتفرحك، ثم تأكلها يا فتحي". مسح المنور بعينيه، وقبل أن يسأل، أين؟ قالت: "في مسمار تحت قفص الحمام". لم تستسلم لأسئلة فتحي المملّة، وجرَت العنزة، وجلست. دخل فتحي حجرته وخرج وبيده بقايا فجل وجرجير ونصف رغيف ورماه للعنزة، وحين زَغَرت له إعتماد، رد بسرعة: "حتى أشتري لها الذُّرَة". بخُطًى وئيدة ذهب فتحي للعنزة، مسّد شعرها الأسود اللامع. ورغم شمس النهار الدافئة، وابتسامة إعتماد الواسعة، والفرح بالعنزة، يأتي الغَمُّ والحزن من أضيق الأبواب، عندما سمع صوت أقدام أمّ سهير تزحف على البلاط، وسمع أنفاسها عالية ومتقطعة، وخرج من المنور حيث أم سهير تستند برأسها للحائط، والعرق يغمر وجهها، فيما سهير كما لم يرَها من قبل نحيلة، شاحبة الوجه، متسعة العينين، شاردة، ممسكة بيدها ظرفًا كبيرًا ملوّنًا سميكًا، من تلك الأظرف الخادعة بألوانها والتي تحمل مُرَّ الحقيقة وآلامها وتكون بداية خطف الروح، هو الظرف الذي تسكن فيه الأشعّة التي تشي بسرطان يسكن جسد النحيلة، وحسرة تشمل الأم السمينة الوحيدة.

***

يا حسرتي، ويا ابنتي فرحة عمري المخطوفة، انهضي، تماسكي، سرطان هذا الزمن يرتع في البنات ويتجول في العجائز. انهضي، لم نأكل لقمة من الصبح، مبنى التأمين الصحي قطَع أنفاسنا، درجات، وحجرات، وأطباء، وموظفات،

مَن يزجرنا ومَن يُطبطب عليك، ومَن يدفعنا بيده ليتحاشى عثرات خطواتنا وصعودنا على درجات السلالم، أنا السمينة كنت أسرع منك، وأقوى، كيف يا سهير؟! وكنت في انتظار أن تعتني بي في آخر أيام عمري، الدواء من يدك بلسم، وابتسامتك تُعينني على الحياة والوحدة والهجر والضغط العالي، وجسد أجرجره، حلمت كثيرًا بيوم زفافك، ومالك كان ابن حلال ومؤدب، ومدرس محترم، لماذا أخرجتِهِ من حياتك وقفلت الباب علينا؟! متى سأموت، ومتى ستموتين، هل سيكفُّ السرطان عن نهش ثدييك؟!

***

هل أستسلم للموت وأترك أمي وحيدة، فريسة لضغطها المرتفع وسمنتها الزائدة، أم أستسلم للألم، وأنا لم أعُد أستطيع احتماله. في الليل أغوص في سريري، كأنني أنزل مقبرة، وتأخذني الأوهام، والمخاوف، وتجرجرني من الحياة للموت لأتأكد أنني حيَّة إلا فيما أسمع الهديل، وخيط رفيع من ضوء يتسلل إليّ.

***

صرخة السيدة السمينة كانت مفزعة ومدوية، سمعها كل السكان. هرول فتحي، واصطدم بباب المنور المغلق، فتحه كيفما اتفق وجرى باتجاه الطابق الثاني، أمام باب شقة السيدة السمينة، وقف عماد حائرًا، وهو يسأل ماذا حدث!! نزلت الحاجّة نعمات مخضوضة من شقتها، حافية القدمين، ولا غطاء رأس. وزعقت في فتحي: "خبَّط على الباب". ضربوا الجرس، ودقُّوا على الباب، ولحقت بهم آمال ببيجامة النوم، وشبشب، وكانت أول من صرخت معلنةً بداية النهاية:

- سهير.. يا حبيبتي!

وما إن فتحت السيدة السمينة الباب حتى اندفع الجميع داخل الشقة، وقلوب تدق بعنف، أشارت لهم السيدة السمينة التي لم يعُد لها صوت للبَوْح، أشارت حيث سهير على الأرض، مَغشيًا عليها، دلفت حنان للشقة بسرعة سهم، ورَكَزت

بجانب سهير، وانحنت عليها، وزعقت في عماد: "اطلب الإسعاف".

***

ياه.. هذا الرجل لا أحبه ولا يحبني.. الشيخ عليّ، بوجهه السمين ولُغده المترهل، وسمنته المفرطة. المرّة الأولى التي رأيته، وكان يفتح باب شقته – المغلقة إلا قليلًا – دهشت من منظره، ثم ضحكت، ضحكت بصوتٍ عالٍ، بَصّ لي شَزْرًا، ومن يومها لا يقول عني إلا الولد عماد النجس.

وأنا مستغرب جدًا من هذه اللحظة، كلنا نهبط الدرجات مع سهير بقلوب مرتجفة، وفي غاية الحزن وعلى عجَل ونراه وهو يفتح شقته، ملتصقًا ببابها، وقف مذهولًا لأننا جميعًا رأيناه في لحظة واحدة، تمتم وهو يبلع ريقه، في شكل سؤال:

- خيرا!

لم يردّ عليه أحد، كنا مشغولين بالسرطان الذي نجرى به!

***

طُرقة المستشفى العام مظلمة، الكراسي الصاج باردة، الوحدة الصحية في بلدنا كانت أحسن منها، على الأقل الدّكّك كانت من خشب، أمي سحبتني صغيرًا لتعالج عيني من الرمد، أنا لا أعرف ما الرمد، أمي سحبتني بعد أن قالت لأبي: "فتحي.. عيناه ستروح". لا أعرف إلى أين راحت عيناي. وأمي سحبتني صغيرًا للوحدة الصحية وأنا أشعر بالسخونية تُلهب جسدي، وصرخت: "فتحي سُخن نار".

لكننا كنا نجلس على دكة خشب تحت ظل شجرة عجوز.

انتفضتُ حين سمعت اسمي: "فتحي".

جرّتني أمي من يدي، ودخلنا، ذَغَر لي الدكتور، وقال: "لا تنزل الترعة". وأعطى

لأمي حبوبًا بيضاء لأتناولها ضد البلهارسيا. أنا أعرف أن البلهارسيا دم. ولكن ما السرطانُ يا سهير؟

***

من حجرة الاستقبال خرجت، متوترًا، لا أستطيع المواجهة، لا أعرف لماذا اختارني الطبيب، ثم سألني عن اسمي، ثم همس: "أستاذ كمال.. نريد لترات من الدم فصيلة O المريضة ستموت، ربنا موجود"، ارتعش جسدي ببرودة، ما إن خرجتُ من باب حجرة الاستقبال حتى جرت إليّ آمال وسألت: "ماذا يا كمال؟!"

سكت، دهرًا، ثم استجمعت قوتي، قلت: "كلنا نعمل تحاليل.. مطلوب فصيلة الدم O".

***

حبيبتي سهيرا!

من حُسن حظّي أن فصيلة دمي O.. أخيرًا سيمتزج دمي بدمك، وفي لحظة مأساوية، أتمنى أن أهديك روحي.

أول مرة أكتب لك، لم تكن اللغة بيننا حروفًا، منذ اليوم الأول في كلية الآداب، قسم اللغة الإنجليزية، وقعت في حب عينيك ورقّتك.

كنت مهمومًا أن أحصل على الليسانس، وكنتِ مهمومة برعايتي، من أول ساندوتش الجبنة بالزيتون، وحتى كوب الشاي الدافئ في كافتيريا الكلية.

لم أكن أملك سوى قلبي، وحكاياتي عن نجيب محفوظ، ويحيي الطاهر عبد اللّه، وإبراهيم أصلان وروايته مالك الحزين، وكنتِ تُلقين شعر محمود درويش بأداء رائع جعل الزملاء في الكافتيريا يلتفُّون من حولكِ يسمعون درويش، ناديتني سنوات يا مالك الحزين، جسدك الضئيل كان سنبلة مزهرة في حياتي. وصوتك حين تغنّين في أذني يُذكّرني بفيروز، وكثيرًا نفس الجملة: طلّيت ما

لقيت غير الورد عند الباب.

أول مرة أكتب لك، كنت أعصر يدك الرقيقة اليمنى في يدي الشمال، كنت أفكِّر جديًا في كيف أذوب داخلك؟! لماذا يمكن أن يتحقق هذا في لحظة مأسويَّة.

حبيبتي سهير.

لما حاولتِ إنهاء علاقتنا، لسببٍ غير مفهوم. كدت أموت حزنًا، لكنني لم أزعل منك، وكنت في انتظار عودتك، ولكن ليس في لحظة مأساوية.

أعدك لن أتركك، سنفرح، ونتزوج، وسيكون لنا أولاد.

لا تخافي حبيبتي فأنا فصيلة دمي O.

مالك.

***

يا لسوء حظي، أنا لست O، عماد بكل ما يملكه من شباب لست O، أنا الذي بات حُلمي طول الطريق أن أكون O، لأهديه لهذه الرقيقة، التي كنا نشفق عليها من حمل أمها السمينة، وأصبحت تحمل مرضًا ثقيلًا خبيثًا، فتحي O، وأنا لا، فتحي يعطي للجميع وأنا A لا أعطي إلا لـ A! أسرتي كلها ليس بها O واحدة!، أختي حنان بكت بشدة وقالت: "سأدفع ثمن لتر من فصيلة الدم O"، وآمال تَعضُّ شفتيها وتنظر لكمال ساكن السطوح باستغراب، كمال، والأستاذ فتحي والحاجَّة نعمات! أيُّ حظٍّ عاثر، آه يا سعيد يا مهران، الحظ العاثر وحش يُخرج لك لسانه، مالك.. مالك من حسن حظه أنه O وهذا ما جعله جالسًا القرفصاء بجوار باب حجرة نقل الدم، خذلتني فصيلة دمي، وسعيد مهران يعدو خلفي.

***

في تلك اللحظة، في ذلك السكون، كانت آمال واقفة على السطح، تنظر حولها على البيوت والعمارات والبنايات الساكنة، فكَّرت في السكون الكاذب لأنها تعرف

أنها تشغي بالمآسي والكوارث، وأن الموت متربص بها. وكمال صامت، جالس على الكرسي الخشب يدخن سيجارته بلا استمتاع. حطّ عصفور صغير شارد على سور السطح، لم يبتسم كمال، كان يفكر بجدّية في وجه سهير الذي صار عينين وفمًا مزمومًا، كان يفكر كيف يُجسّد السرطان في الجسد الإنساني الضعيف.

***

في تلك اللحظة، وذلك السكون، كان الأستاذ فتحي مدير المدرسة في غاية الحزن لأن عمره لم يساعده على التبرع لسهير.

والأستاذ عبدالسلام كان يتحرك في الشقة كالتائه، ينتقل من كنبة إلى كنبة، من حجرة النوم للمطبخ، للصالة، ثم فتح الشباك، ونظر للمرة الأخيرة على فتحي النائم على الكرسي بجوار حجرته الخشبية، وللعنزة، عَضّ على شفته بلا انفعال.

***

في تلك اللحظة، في ذلك السكون، كان مالك يجهّز القميص والبنطلون في بطء، استعدادًا لنزوله للشارع، ثم إلى حيث سهير راقدة على فراشها ممدّدةً في انتظار مجهول. منذ ساعة وهو يرشف من كوب الشاي البارد الذي لم يفرغ بعد.

في تلك اللحظة، وذلك السكون، كان البيت ذو الطوابق الخمسة ساكنًا، صامتًا، كاتمًا حزنه، حتى الأطفال كانوا لا يلعبون، إنما يتهامسون.

***

في تلك اللحظة، كانت سهير تعيش ضجيجًا وفزعًا داخليًا، فيما عيناها تبحلقان في السقف، والمصباح المطفأ، وكانت الستائر تتصدى لضوء النهار، وللدفء، وتلغي الشارع والسيارات والرجال والبنات والنساء والحركة، والرغبة في الشراء والبيع، تلغي الدكاكين، والمقاهي والضحكات. بينما السيدة السمينة ممددة على الكنبة المقابلة، كتلة ضخمة من جسد يرتجف، وعين مذعورة تطلُّ

على ابنتها التي تتنفس بالكاد.

***

في تلك اللحظة، وذلك السكون اهتزَّ الجسد بعنف، وانزلقت دمعة ساخنة من عين سهير حين تذكّرت مالك، الذي قفز في تلك اللحظة داخل ميكروباص، ليرى سهير وقرر أن يُقبّلها في جبينها ويهمس لها: "لا تخافي أنا فصيلة دمي O".

الصَّدَى

آلو.. آلو.. يا عبد النعيم.. آلو.. نعم.. أنا عبد السلام.. عندي شقة خالية.. لا.. خلت من سكانها من أسبوع.. نعم.. الدور الثاني.. يُدفع إخلاء طرف عشرة آلاف جنيه.. الإيجار.. ألفان.. 2000 يا حمار.. شقة في الدور الثاني.. في انتظارك.. نعم.. خالية.. ليس عليها مشاكل.. كانت سيدة كبيرة السن وسمينة.. وابنتها الوحيدة ماتت.. ورجعت للبلد.. نعم يا حمار.. 2000 جنيه . سلام.

***

آلو.. حسن.. أنا مالك.. ونِعم باللّـه.. عرفت.. أنا سأموت يا حسن.. سهير تركتني وحيدًا في هذا العالم.. نعم.. نعم.. أمها رجعت إلى البلد.. صدري يتمزق أنا آسف يا حسن لن أستطيع الكلام الآن.

***

علي.. أنا عماد.. لا أريد المدرَسة، ولا المذاكرة، ولا الكتب، لماذا نذاكر ونجتهد وندخل كلية الآداب قسم إنجليزي.. هه.. لماذا.. حتى يجيء السرطان على مهل وينهشنا ونموت، وتأخذنا عربة إسعاف إلى بلدتنا البعيدة. اسكت يا علي.. اسكت يا علي.

***

حازم.. أنا حنان.. أوحشتني.. لم أرَكَ من أسبوع.. نعم.. سهير.. كان اسمها سهير.. نعم.. السرطان.. لا تعرف كم نحن حزانَى.. كل سيدات وبنات البيت يلبسن الملابس السوداء.. يا حازم.. كانت زهرة رقيقة تخاف أن تشمَّها حتى لا تجرحها. والرجال يدخنون السجائر بشراهة.. عرفت هذا من أعقاب السجائر المتناثرة على درجات السلالم. نعم.. نعم!!.. كلنا يشعر أن سهير خُطفت!! كانت توزِّع ابتساماتها المكسورة الحزينة علينا.. أتعرف.. هي الوحيدة التي تعرف

علاقتي بك.. وحكيت لها كَمْ أحبك يا حازم.. كانت الدموع تطفر من عينيها.. وهي تشجعني أن أظل أحبك.. فعلًا يا حازم.. كنت أتسلل إليها بعد أن تتناول مع أمها وجبة الغداء.. أمها تنام بعد تناول الطعام.. أتسلل إلى سهير، ثم نتسلل إلى حجرة سهير.. كان بالحجرة كتب شعر وروايات.. كنا نزيح كل شيء، ونتمدّد على السرير.. تبتسم.. ثم تسألني: ما أخبار حازم؟

***

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.. معك الشيخ علي.. نعم صوت القرآن الكريم، واحدة ماتت، البقاء للّه.. هل جهزت المطلوب. وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته.

***

نعم يا كمال.. آمال.. صوتي.. قُلْ قلبي.. قلبي يتمزق حزنًا على سهير.. هل تعرف.. كنت أنزل إليها بعد منتصف الليل.. أشرب معها الشاي، ونتحدث، كنت متصورة إني سأموت قبلها.. وأحدثها عن الوحدة والشجن، وكانت تبكي كثيرًا.. وثُربِّت عليّ.. وتحكي لي عن حبها لمالك وحبها للحمام في المنور، كنت أحب أغنية ناظم الغزالي: "أقول وقد ناحت بقربي حمامة"، وكانت تنهض وتلفُّ وتدور راقصةً وهي تغني: "أهواك وأتمنى لو أنساك" لعبد الحليم حافظ.

***

أيوه يا خال.. أنا فتحي.. أنا راجع البلد يا خال.. آلو.. يا خال أنا راجع.. سأبيع العنزة والحمام وراجع.. الدنيا لم يعُد لها أي طعم.. سهير ماتت يا خال.. سهير.. ألا تعرفها.. سهير يا خال.

***

أنا كمال.

أيوه.. نبيل، أصابني مرض؟! لا لا.. هو مرض الفراق.. الألوان القاتمة تغمرني.. نعم.. حزين.. نعم أنا حزين.. حمامة وطارت.. نعم!! لا لا.. أنا أرسم الآن لوحة اسمها سهير.

***

آلو.. آلو.. سهير أنا ماما يا حبيبتي.. لقيت تليفونك قلت أكلمك: إنت فين يا سهير!

لماذا ينطفئ الوَهَج؟!

- يا أمي.. رحلة ليوم واحد للقاهرة مع الكلية.

- يا حنان.. نحن نصيّف في شرم الشيخ، ونذهب للشتاء لأسوان، وتقولي له رحلة يوم واحد؟

كيف أقنع أبي وأمي برحلة اليوم الواحد مع الشخص الواحد، مع الحب الواحد، كيف؟!

نهضتُ ملسوعةً فقد فتح أبي الباب عليّ فجأة، وأحسستُ أنه أمسك بتفكيري اللعين، وضبطني متلبسة، أمسك أُكرة الباب وقال:

- رحلة يوم واحد يا ست حنان؟

أومأت برأسي:

- إذن الرحلة على حسابك بكل مصاريفها.

وصفق الباب واختفى.

نهضتُ أتقافز بفرح، وخِفت أن أطير من الشبّاك، وأحطّ قتيلة في المنور، فتماسكت وعضضت شفتي بقوة، وهمست:

- رحلة اليوم الواحد مع حازم.. ما أسعدني!

***

ما هذا؟! كما لو أن شيئًا لم يحدث.. ماتت سهير، ورحلت السيدة السمينة، وعمّ الحزن ليلتين، وارتدت النسوة الملابس السوداء ليلة، وعاد كل شيء يسير، عماد يحطُّ عندي ويقرأ كتب أصحابه وآخرهم كاتب اسمه إبراهيم، يدخّن عماد السجائر ويشتم الشخص الغريب الذي يضايقه وينغّص عليه حياته الذي اسمه سعيد مهران. والحمام لا يكفُّ عن الهديل، أصبح عندي الآن ستٌّ من الحمام، ما

زالت بريشها الناعم، كل شيء كما هو، فُتحت الشبابيك، وتدلّت الرؤوس منها لتتكلم في الموبايل همسًا أو زعيقًا. ما هذا؟ كأننا لم نفقد سهير، كأني الوحيد الذي فقدَ سهير، أزحت الذباب عن رِجليّ الممددتين العارتين فحطّ على وجهي في عناد، وكان عليّ أن أنظّف زُرَاق الحمام وزبل العنزة، بقايا الذرة والحشائش الخضراء، وهذه الرائحة غير الطيبة التي فاحت بعد أن مشيتِ يا سهير.

***

وقفت في الشباك.. وما إن رأيت حنان حتى لوّحت لها، هي استدارت ورفعت رأسها لأعلى ولوّحت لي.. كانت ابتسامها عريضة، والفرح ينطُّ من وجهها، أعطيتها مائتَي جنيه دون عِلم عبد السلام، طبعًا.. رحلة.. ولا بد أن ترفع رأسها بين الجميع، آه يا حنان.. أحلم أن أحضُر يوم زفافك.. وأزغرد.. وأرقص.. لا أريد أن يحدث معك.. مثل ما حدث مع آمال.. آمال المسكينة الطيبة العانس.. سقطت دمعة من عيني.. لم ترَها حنان التي لوّحت بشدة قبل أن تختفي في الشارع المجاور.

***

نشف ريقي وتلعثمت وزاغت عيني، أمشي بين الطلبة والطالبات هائمًا يبتسمون: "صباح الخير دكتور حازم". وفجأةً رأيت حنان قادمةً كالنور.. كالفرح، رفَّ قلبي، وأمسكت بنفسي حتى لا أسقط مكاني، هي ابتسمت شقّت طريقها بين الطلاب واقتربت من باب الأتوبيس، تحسّست شعرها، وابتسمت ابتسامة بوسع الكون وهي تقول: "صباح الخير يا دكتور". مع أنني ما زلت مُعيدًا، كنت أسبقها في الكلية بعامين دراسيين، لكنني عرفتها من أول لحظة رأيتها فيها في الكافتيريا وكانت تشرب النسكافيه، ولفت نظري أنها أحيانًا تأتي الكلية بسيارتهم الزرقاء.

جلست بجوار شباك الأتوبيس، وجلست بجوارها، الآن أستطيع النظر ناحية

الشباك فأبَضُ عليها، وعلى تلك الرموش التي تغطي العالم كله برفق. أيٌ فلسفةٍ تلك التي تحجب العقل، وتنحّي الإحساس.. آه.. لمس ذراعي ذراعها فارتبك العالم.

***

ماذا بك يا حازم؟! أسَتغرِقُ في خجلك إلى الأبد؟! لقد سئمت، لكنني أحبك، تخشى من فقرك، ومن شقة أبيك المخنوقة في حارة مخنوقة، تخاف قراءة الشعر الرومانسي، ويشغلك الفلاسفة وستحصل بعد شهور على الماجستير. همست متعمدة:

- حازم!

ردَّ بصوت يفضحه الارتباك:

- أيوة.. نعم!

سألته:

- فطرت؟

***

ارتفع صوت الهديل في الصباح الباكر!

وآمال تمددت على الكنبة في حجرة كمال، وكمال يدخن السجائر بلا توقف.. ورغم آلام صدره التي تهاجمه من شهور لا يكفُّ عن التدخين. يهمس لآمال: "المتعة الوحيدة". تمد يدها إلى ذقنه ذي الشَّعر الخشن، تمسّده. آمال تدمع، وتسأل نفسها بدهشة: "الوحيدة!!"

فتحت عينيها، ابتسمت، كان يرسم عنزةً على لوحة كبيرة، والعنزة جميلة، فعلًا، قال لها كمال: "وجهها يشبه وجهك يا آمال ألا تلاحظين؟!"

***

مأمأت العنزة بصوتٍ رفيعٍ مسلوخ..

وهدل الحمام..

وزقزقت العصافير...

فنهض عبد السلام من نومه كالملسوع. وتدحرج من فوق السرير، وجرى باتجاه الشباك حافيًا. وفتح الشباك بعنف وهو يصرخ:

- يا زفت.. يا فتحي.. هذه زريبة! آخر يوم لك يا فتحي.. يا زفت!

***

انفرط عقد شباب وشابات الرحلة، في الفضاء التاريخي، في حضرة مشهد الأهرامات الثلاثة، وأبوالهول، هرول الجميع إلى الهرم الأكبر، فيما أمسكت بيد حازم، وجررته حتى يجري معي، حين جرى، ضغطت على يده.

أمام أبوالهول كان يلهث، وكنت عرقانة، وقفنا، نحلم بلمسة حياة جديدة، مدَّ يده المرتعشة لتستفيض على كفِّي، ارتاح جسدي إلى جسده، فضمَّني، وغامت الدنيا.

وكان بعض الطلبة في البعيد، وأنا ألملم شعري.

ولا يزال صوت صباح ينطلق بأغنيتها "ساعات ساعات.. بَحِبّ عمري واعشق الساعات".

***

أنا زفت.. نعم.. لا يقصد غيري، يصرخ ويزعق كلما سمع الهديل، أو ثغاء العنزة.. مِنّك للّه يا إعتماد. كنت في غنى عن الهديل والثغاء، والمرمطة، والإهانات والسِّباب، ماذا أفعل سأصعد إليه، يسبني، ويشخط، ويطلب مثل كل مرة أن

أرمي الحمام، والعنزة في الشارع، وحتى أطارد العصافير، وسأقول حاضر يا بيه. وتمضي الأيام ويَنسى حتى شهور قادمة.

- ولد يا زفت.. يا عماد!

- نعم يا بابا!

- انزل بسرعة لفتحي.. قبل أن يطلع وقُل له: اليوم آخر مهلة لترمي الحمام والعنزة في الشارع.

خرج عماد من حجرة أبيه، ودخل حجرته، وارتمى على السرير ليكمل نومه الذي لا يهنأ به أبدًا في هذا البيت.

***

سحبت كيس الذرة من درج الدولاب، أنا أخبّئ كيس الذرة في درج الدولاب من أبي، أبي الذي يكره الهديل، وأنا أحبه، وأُحب كمال، هذا سرٌّ تعرفه سهير التي رحلت بكل أسرارنا، لكن كمال لا يحب أحدًا، ولا يهزُّه في لحظة أن يمسك بيدي!

- أهلًا ست آمال.

ابتسمت بمرارة:

- كيفك يا فتحي؟

وجرجرت قدمي حتى قفص الحمام، وقفت، لا أتخيل أني سأحرم من هذا الهديل، مددت يدي على الحمامة التي استكانت تحت يدي، وريشها اللامع شديد النعومة، بعكس شعر ذقن كمال شديد الخشونة.

أنا أحبك يا حمام.. وهديلك أصبح ما يشغل حياتي!

انزلقت دمعة.

جرى إليّ فتحي وسأل بلهفة:

- الحمام تعبان يا أبلة؟!

***

كنت مرتبكًا لأقصى حد، بالتأكيد عيون تلاميذي لا تفارقني، وتلاحقني أنا وحنان، سألتني:

- مرتبك؟!

- نعم.. الطلبة.

ضحكت حنان، ولمّت شعرها للخلف وهتفت:

- نحن الطلبة لنا عالمنا.. ولا نهتم بأحد.

أخرجتُ منديلي، ومسحتُ العرق، أنا لا أملك أي حل، لا أستطيع التقدم للزواج من حنان، ولا أستطيع أن أضحّي بوظيفتي، ولا أستطيع أن أتخلّى عن حبي الجامح لحنان.

***

كان مصطفى واقفًا ممتشقًا سعيدًا وخلفه أبوالهول، مصطفى يحب الآثار المصرية أكثر من أي فلسفة، إنه يحب هذا الفضاء، هذا التاريخ المدهش الصارخ بالعمارة والألوان، وفي الفضاء بعيدًا لمح حازم المعيد وحنان تواريا خلف صخرة، هذا الاختفاء الذي يولّد الإثارة، تقدَّم بشغف، وتقدم، وحين صار حازم وحنان على مسافة، وكانا في حالة غياب عن العالم، وأمسك حازم يد حنان، أسرع مصطفى ورفع الموبايل وضغط صورة غير تقليدية في حضن الأهرام.

همس وائل:

- كيف تفعل هذا! ليس من حقك.

تردّد مصطفى وقال:

- عجبتني اللقطة.

قال وائل:

- هذه جريمة!

وسرعان ما همس طالب لطالبة، بالصورة واللقطة التي تضمُّ حازم وحنان، ولا تعرف كيف وصل الهمس إلى حنان وحازم، حازم الذي ضرب رأسه بيده ندمًا، وحنان التي اندهشت من موقفه، بل وانسحبت وارتمت في الأتوبيس.

في الأتوبيس وفي العودة تنطفئ كل الحيوية والنشاط والفرح والفضول والتوهُّج الذي كان في الذَّهَاب، في العودة يحطُّ الإجهاد وتستسلم الرؤوس والعيون للنوم، لكن حازم لم يغمَض له جفن، وكان يبحث بعينيه محاولًا أن يعرف أيُّهم صوَّر اللقطة، وأيهم سيحمل له الفضيحة.

ذُعْر

نهض عبد السلام أفندي كالملسوع من نومه، وانتفض، ثم ضرب الحائط بيده. وزعق:

- لم أعُد أستطيع تحمُل صوت العنزة!

ثم زعق على عطيّات زوجته، التي تغطُ في النوم، وتشخر، تنام كجثة مقتولة من الطبخ والكنس والغسيل، ومن أفعال زوجها.

زعق:

- يا عطيات!

انتفضت وجلست فى لحظة واحدة، مذعورة، ويدها تفتش تحت المخدّة عن إيشارب تلفُ به شعرها المنكوش!

- فتحي حوّل المنور إلى زريبة.. زريبة يا عطيات.. سأذبح العنزة والحمام.. وسأرميه في الشارع!

همست لتهدئته:

- الصباح رباح يا عبد السلام.

كاد يلطِمُ على خدّيه:

- نحن في الصباح يا عطيات!

ثم خرج من الحجرة حافيًا، وهو يرفع بنطلون بيجامته، وأخذ ينادي:

- يا عماد.. يا زفت!

هُرع إليه عماد، وآمال، وحنان، ووقفت عطيات مذعورة.. كانوا كلهم واقفين على أرجلهم لكنهم خارجون من نومهم، في ذهول وذعر. هتف عبد السلام:

- يا عماد.. انزل للزفت فتحي وقُل له يذبح العنزة ويذبح الحمام!

بَصّ له عماد بغيظ وحِنق. أدار ظهره ونزل.

***

خبطتُ خبطتين على باب فتحي.. الذي فتح الباب مذعورًا!

- خير يا عماد؟!

دخلت الحجرة، وأخرجت من جيب الترنج سيجارة. جلست على الكرسي، بجوار الترابيزة، و"السبرتاية" وشعرت أن صوتي يخرج من ماسورة صَدِئة حين قلت له:

- أريد كوب شاي يا فتحي.

قال بسرعة:

- عيني لك يا عماد.

سمعت صوت العنزة.. بصوتٍ مسلوخٍ تقول: مااااء.. مااااء

ثم سمعت صوت الهديل.

التقط فتحي ما سمعته، وهمس كأنه يعتذر:

- هكذا.. حين يطلع الصبح، والدنيا تنوِّر، تتكلم الحيوانات والطيور مع بعضها.. في البلد بعد الفجر الحيوان كله يتكلم.

توترت أكثر.. لقد دخلنا في صلب الموضوع مبكرًا. فتحي باغتني حين قال:

- كيف حال صاحبك.. الأستاذ نجيب؟

نهضتُ واقفًا. لا أعرف كيف هاجمني حزن الهديل. فقلت لأتخلص من كوم همّي:

- بابا.. يقول.. يعني.. لا يريد العنزة ولا الحمام في المنورا

فتحي نكّس رأسه، فقلت لأنتهي:

- إنه قرر أن يذبحها!

استند فتحي على سريره. وجلس منهارًا. قلت: اهدأ.

- يا رجل.. هذا مجاز.

وفتحي لا يعرف المجاز.

***

سمعت الهديل الذي غطى على زعيق أبي، للهديل بهجة تحطُّ في صدري، تسحّبت وأخذت معي كيسًا خبّأت به – في الليل – تفاحتين، ورمانتين وعنقود عنب. ما إن أغلقت باب الشقة خلفي حتى استرحت.. ما هذا يا آمال؟! لستُ لصّة، فقط أنا فتاة تجاوزت الأربعين، وأبحث عن دفء في عالم بارد.

تمددت بجوار كمال على السجّادة الملطّخة بالألوان، وحتى قميص كمال كانت الألوان مبهجة على صدره! هو يحب الألوان التي تصبغ أصابعه وملابسه وسجادته. كان أمامنا طبق زجاجي مدوّر، واسع، يستطيع أن يحتوي على كل فاكهة الأرض وأعنابها. في الطّبَق الزجاجي التمعت تفاحتان ورماتان وعنقود عنب بناتي. بإصبع قدمي داعبت أصابع قدميه، ابتسم كمال بعذوبة وحزن كأنه يقول: اعذريني.

طبطبتُ على ظهره بحُنُو. ونهضت.

وخُيّل لي أن الحمامة التي رسمها في لوحته ترتجف.

***

في الكلية تحولتُ إلى آذان تحاول أن تلتقط أي همس عن صورة لطالبة تحب

أستاذها وتميل برأسها عليه، فيما "أبوالهول" لا يعبأ بشيء. وكنت أجنُّ حين أسمع اسمي يتردد بهمس: "حنان"، وحين أقترب لا أرى أحدًا. الذعر تحول إلى حالة وهواجس وشياطين. أقرب زميلة لي هزّت رأسها باستهزاء، وقالت بحدّة ووضوح: "ولا يهمك وَمضَت".

في الكلية تحولت إلى عينين تبحثان عن زميلنا في الرحلة الذي التقط الصورة، كل وجوه الشباب طيبة إلا بعض الوجوه التي تتجاهلني ولا تكترث بوجودي. أبحث بعيني عمَّن يريد فضح حازم، حازم المحبُوب صاحب طلابه، يشارك معهم في الرحلات، والمعسكرات ولعب الكرة.

لقد تعبت، لماذا لا يصعد مَن التقط الصورة على المسرح ويعرضها. أريد أن أنتهي بأي شكل.

حازم حين يقابلني يتجاهلني. هل هذا هو الحل يا حازم؟!

***

ذلك الصباح، أعطاني كمال لوحة رسَمها لي، لا أعرف متى.. كنتُ في الصورة آمال أخرى، أصغر عمرًا، أكثر بهجة، غير أن ألوانها دكناء.

أمسكت بيده الحنون، حلمت أن أقبّلها ولم أفعل.

***

- آلو.. آلو.. حنان.. اسمعيني، افهميني واعذريني، مستقبلي سيضيع، سأهيم في الشوارع بحثًا عن جنيه ولقمة، لتأكل أمي. أبي مات، وكان يظن أني سأصبح نابغةً في العلوم، لكن الفلسفة لم تعطني سوى التفكير.. يا حنان.. اعذريني.. أمي تبصُّ في عيني ليل نهار كأنها تسأل ما أصابَك.

***

فكرة لن تخطر على بال أحد سوى واحد مثلي يحب عنزته وحَمامه.. نعم..

نعم.. أرمي السرير والكرسي خارج الحجرة، وأعلّق قفص الحمام على الحائط، وأربط العنزة في أُكرة الباب.

سأخفيهم عن العيون، لكن المأمأة والهديل، سيسمعها من خامس دور.

إذن أسحب العنزة وأمضي في الشوارع، ويحطُّ الحمام على كتفي، وأشحذ قروشًا قليلة تمنع بلاوي كثيرة لأكل العنزة والحمام..

نعم نعم.. يا خيبتك يا فتحي، وخيبة تفكيرك، وفي الليل تجد نفسك مرمي في قسم البوليس، وقابلني لو رأيت عنزتك وحمامك مرةً ثانية.

أنا أبكي كطفل فقد أباه ولا يعرف معنى الموت!

***

انكمش مصطفى في ركن حجرة فقيرة مثل شقتهم الفقيرة، وابتعد عن عينَي أمه التي تزعق فيه كلما رأته يفتح الموبايل ويهمل المذاكرة، فيما أبوه الإسكافي لا يراه إلا في قلب الليل.

فتح الصور على الموبايل، تأمَّل أستاذه المعيد حازم وزميلته حنان.

في الحقيقة كلما رأى الصورة تغمره السعادة والفرح ويتأمل وجه حنان طويلًا.

***

سمعتُ باب الشيخ عليٍ يغلق، خرجت مسرعًا، فسوف يفيدني بنصيحة أو فتوى أو يطيِّب خاطري.

ناديته لأستوقفه:

- شيخ علي!

ارتبك جدًا الشيخ علي، قبض بقوة على حقيبة في يده، ورمى الموبايل في جيب جلبابه الأبيض النظيف، وقال وعيناه تفتشان في كل مكان:

- نعم!

طفرت دمعة من عيني وقلت:

- سيذبحون عنزتي.

قال بصوت مرتفع، مُؤكّدًا:

- حلال حلال حلال.

وجرى باتجاه البوابة واختفى.

قرارات

استند كمال الرسّام على سور السطح، كان حزينًا، داعب بإصبع باردة شاربه الكَثّ، بصّ على البشر من فوق السطح، كانوا أصغر مما يعرف، وأنظف، في البعيد مئذنة طويلة رفيعة مغرورة في السماء، والسُحب تتهادى، فيما الأصوات بعيدة، وأنا الراوي العليم سمعته يتمتم:

- ماذا أفعل يا آمال.. سامحيني!

سكت وعضّ شفته السفلى:

- ليس بيدي!

هرش شعره. وعاد مسرعًا بقرار نهائي.

***

لم أنَم الليل كله، ركبني عِفريت الخوف، عبد السلام أفندي، قريبي من بعيد وصاحب البيت، لا يكفُّ عن الزعيق، وصوته يعلو على صوت العنزة السوداء. مااااء.. مااااء.. مااااء.

رأتني العنزة وارتفع ثغاؤها، هرولت مذعورًا إليها.

- اسكتي.. اسكتي.. اخفضي صوتك سيسمعك.. عبد السلام أفندي، قرر ذبحك.. ذبحك.. وربما طمع في جلدك وقرنيك الطويلين الرفيعين.

جلستُ بجوارها على الأرض ومسحت حافرها فالتمع، نظرتْ لي بعينين مفزوعتين، أخذتُ رقبتها في حضني، كان للعنزة رائحة أعرفها في بلدنا. عرفت كل الروائح: رائحة الخبيز ورائحة الخراف والعنزات والجواميس، ورائحة النّعناع والريحان، ورائحة الحمام.

ركنتُ ظهري للحائط، جرى الصرصور ناحية البلّاعة، يومك أسود وطويل يا

فتحي، سيرميك في الشارع، وأنا الذي حلمت بأن أعيش في المدينة، وألبس نظارة نظَر طبيَّة، ليتك يا إعتماد ما أهديتِني حمامتين وعنزة، العنزة لم تغد وَنَسِي، صارت همِّي وكربي.

***

نزلتُ إلى فتحي، دخلت المنور، قلت له:

- اسمعني.. بابا تكلّم مع الجزّار واتفق معه أن يأتي ليذبح العنزة والحمام.

- متى يا عماد.. متى؟!

- عندك فرصة.. لتتصرف..

خُيِّل لي أن فتحي يرتعش، ركع على ركبتيه أمامي.. سألني:

- ماذا أفعل يا عماد؟!

نهضتُ وأنا في غاية الحزن، لكن فكرةً التمعت في ذهني:

- اسمع يا فتحي.. أرجِع العنزة والحمام إلى إعتماد.

تنهَّد فتحي.. وجلس على الأرض:

- يا سلام.. فكرة بمليون جنيه.. شكرًا يا عماد!

جلست مرةً ثانية:

- هل يمكنني أن أشرب معك كوب شاي؟

تهلل فرحًا وهو يقول:

- طبعًا طبعًا يا سي عماد!

***

أنا الحاجّة نعمات، الموظفة الكبيرة، ماذا سأفعل. هذا البيت وهذه الشقة إيجارها لن أقدر عليه، الغلاء يضرب كل شيء، وزوجي الذي هجرني من سنين وسافر للعراق لم يعُد، سافر يوم سُبوع سعيد، أطلق الجميع عليّ بعد ذلك لقب "الحاجّة"، قالوا إنه مات، وقالوا إنه ترك العراق وسافر إلى ليبيا، وقالوا إنه تزوج سيدة أردنية واختفى، وأنا لم أرفع قضية طلاق فربما عاد يومًا، وربما سَنَد ظهري وربما وجد سعيد أبًا يفرح به.. وربما طَرق عليّ باب.

في هذه اللحظة سمعت الحاجة نعمات ثلاثَ طرقاتٍ على باب شقتها، شاخت روحها، هل وصَل زوجها فعلًا، شدّت جسدها شدًّا من فوق السرير وجرجرت قدميها وفتحت الباب بذعر وبلهفة وأمل. رأت عماد، قالت لنفسها: "زفت عمادا!"

- نعم يا سي عماد؟!

- أبي يقول إيجار الشقة لمدة شهرين.. لا لا.. وإلّا سيتصرف.

ولم يتنظر الإجابة وهرول على درجات السلالم فخبط في أخته آمال التي في طريقها للسطح، ولم يفكّر في أخته فقط، كان يتمنى أن تنشقَّ الأرض وتبتلعه.

***

جلست الست عطيات بجوار زوجها عبد السلام أفندي صاحب البيت والدكاكين، وكان عبد السلام يتصبّب عرقًا فقد تسلّم أخيرًا الدكان الجديد القائم في الشارع الرئيسي، ويطلُّ على شارعٍ جانبيّ.

وسألته عطيات بهمس خشيةَ أن يزعق فجأةً كعادته:

- ومتى سيكون الافتتاح؟

تمتم:

- بعد أن يكتمل كل شيء.. ثم سنضع الأقمشة، والزينة، ونحضر الـ Dg، والمشروبات والذبائح!

ثم توقف عن الكلام وأضاف:

- واللّه فكرة.. أشتري العنزة من فتحي لنذبحها مع الخروفين لزوم الاحتفال بالافتتاح مع العملاء والزبائن والأهل!

قاطعته عطيات:

- يا عبد السلام.. توفّر هذه الفلوس ونهتم بالبضاعة.

زعق:

- عبيطة.. طول عمرك عبيطة.. هذه مصاريف الإعلان عن افتتاح الدكان الخامس في عين العَدوّ.

ثم انتصب ونادى باستغراب:

- يا زفت!

***

تسلّلت آمال إلى السطح، وقلبها يدق بعنف، في كل درجة سُلّم، تنظر لأعلى، هذه الدرجات ستؤدي إلى السطح حتمًا، إلى كمال حتمًا، أمسكت بالدرابزين. شدّت نفسها وصعدت.

على السطح يمامة بُنيّة اللون، وبعض العصافير، العصافير تحطُّ وتزقزق عندما يرحل البشر، فزعت وبصّت على الحجرة. الباب مفتوح، وثمّة هواء بارد ورائحة. سقط القلب منها، لكنها جرجرت قدميها، ودخلت الحجرة، أطلّت، ليس سوى أوراق مبعثرة، وسرير مهجور، وبُقَع لونية على الأرض، وقفت مدهوشة، أحست بألم بذراعها اليُمنى، ونَشِف ريقها، على يمينها لوحتها البورتريه الذي رسمه لها، ذات ليلة، وكانا يسمعان أغنية لفايزة أحمد، ودمع كمال! وحين رددت فايزة أحمد: بُكرة تعرَف.. تعرف.. إني حقيقي.. حقيقي بَحبّك.

عضت شفتها السفلى. بعد أن هرب منها "بُكرة" وكل الأيام. جلست على حافة السرير، على الجدار المقابل لوحة لحمامتين كفّتا عن الهديل. انزلقت الدموع غزيرة، تمخّطت، وسندت رأسها بيدين ترتعشان.

***

هكذا يا كمال بدون كلمة وداع، تتركني يا كمال وحيدةً في هذا البيت الواسع البارد، تتركني يا كمال مع سنواتي الأربعين وشهادتي المتوسطة، وأيام لا ترحم. قطعت بيني وبين السطح وبين السماء وبين الهديل!

لن أسامحك يا كمال، كنت فقط أريد أن أمسك يدك لحظةً واحدةً قبل الرحيل، وأرى عينيك اللامعتين مرةً واحدةً قبل الرحيل. لتستقرَّ في ذاكرتي حتى الرحيل.

يا كمال، روحي ترحل، والشمس تتعثر في السُّحب وغروبها.

***

قتلني الانتظار يا إعتماد. لماذا لم تعُد تجيء. لا لبن ولا جبن ولا ابتسامتها الطيبة!

أسبوع وأسبوع وأسبوع..

أين أنتِ يا إعتماد؟!

أحتاج مشورتك وسؤالك

تعالَي خذي عنزتك والحمامِ

ساعديني يا إعتماد

اختفت إعتماد.. أسبوعًا وأسبوعًا وأسبوعًا.

شَجْو

في المنام رأى فتحي الحمامتين تحلّقان في السماء. اختلطت زُرقتهما بزرقة السماء، فيما سُحُب بيضاء تلفُّهما بين حينٍ وحين، وانطلقت حمامة باتجاه قمر ينير في عزِّ النهار، وحمامة تهدل في شَجْو.. تهدل في شجو.. تهدل في شجو.

***

في الصباح الباكر نهض فتحي وقرر أن ينفِّذ حُلْمه ويفسّر منامه.

دفَس قدميه في الشبشب، وجرَّ نفسه جرًا حتى وقف أمام القفص الجريديّ والحمامتين، بعيون صغيرة لامعة بصّت الحمامتان في عينيه المجهدتين. وأخذت حمامة تهزُّ رأسها يمينًا وشمالًا. ثم مدَّ يديه بحذر، ودقَّ قلبه بعنف، وأمسك الحمامتين، لم تبدر منهما أيُّ مقاومة أو خوف، ضمَّهما إلى صدره، وخرج من المنور، صعد السلالم وقلبه يرجف، إلى أن وصل للسطح.. وفرد أصابعه، ومدَّ ذراعيه، ووهب الحمامتين للفضاء. نزلت دموع ساخنة، واختفت الحمامتان بين سُحُبٍ دَكْنَاء لم يَرَها في المنام.

***

- صباح الخير يا حنان.

- يصبّحك بالخير يا أمي.

ما زلتُ طفلتها الصغيرة، التي تضع أمامها طبَق الفول المدهوس بالسمن البلدي، وفي صحن صغير بيضة مسلوقة. تنتظرني أن أُنهي الدراسة في الكلية، وأعمل في وظيفة، وأملأ حقائبي بالقماش الفاخر، واللُّعَب، والهدايا الثمينة، انتظرت طـويلًا هدية كبيرة من حازم، لم تأتِ، يشكو لي حاجة أمه للنقود، ويشكو لي أنه حلم بأن يصبح في يده قرش، هو يخاف المرض، والعَوَز والتهم الكاذبة، وسـوء تقديره. فيمشـي كما قال لي في الحائط. يود أن يختفي عن

العالم حتى لا يراه أحد. آه يا حازم، وما أحببت فيك سوى قلبك الطيب ورهافته وحتى دموعك التي تتساقط كلما تأثرت، ارتعاشة أصابعك حين تلمسني!

- الشاي.

- شكرًا يا أمي.

أشرب الشاي بسُكَّر كتير، ثلاث ملاعق على الأقل، هو يشرب الشاي بمعلقة سكر واحدة، هو يخاف المرض السكري، والضغط، ويتابع ضربات قلبه، ويختبر قوة إبصاره كل يوم.

حازم ليس بخـيلًا.. حازم يحبني.. حازم.. لا أعرف!

فجأةً سمعتُ صوت أمي تقول:

- الشاي بِرِد يا حنان!

***

تسحَّبتُ ببطء، حتى وجدت أُمّ مَصطفى أمي وقد سحبت الغطاء الثقيل فوقها، وأحكمتْ ربطة الرأس ثم دفست "بونيه" في رأسها كاد يغمي عينيها، وثنت ذراعها تحت رأسها. وقبل أن أخرج من الحجرة إلى الصالة كانت أم مَصطفى أمي قد شخُرت. أغلقتُ الباب جيدًا، وقفزتُ إلى الكنبة بجوار الشباك، وسحبت الموبايل برفق وحنان، بحنان ورفق، أحب أن أقول اسم حنان وأردّده، لمست إصبعي الدائرة الحمراء لتنفتح على عالم الصور الذي أمتلكه، جريت بإصبعي على الصور حتى رَفعتُ إصبعي لتتوقف الصور عندها، صورة حنان مع المعيد حازم. قرّبت الموبايل من عيني، قرّبته لأرى ملامحها الجميلة الباسمة المدهشة وهي تبتسم نصف ابتسامة.

***

ما الذي أراه؟ هل مات فتحي؟! فتحي جالس على كرسيّه أمام باب حجرته

الخشبية، ورأسه يتدلى على صدره، الذقن يسند بالكاد رأسه، مُمدّدًا رِجْليه عن آخرهما، وقدماه عاريتان. تقدمت بهدوء، بهدوء هززته، هبّ مذعورًا، صرخ:

- عماد!

طبطت عليه ليهدأ:

- ماذا بك يا فتحي؟!

- طيّرت الحمامتين.. في السماء لا يوجد جزارين يا عماد.

- كلنا يبحث عن العدل.. حتى سعيد.

- سعيد مهران.. عرفته!

دخلنا الحجرة الخشبية، أشعلت سيجارة، جلست على حافة السرير، حاولت أن أكون صادمًا، لكن صوتي كان مرتعشًا:

- أحذرك.. انجُ بعنزتك!

***

أبصُ على عطيّات وهي تروح وتجيء، وتفرك يديها في غيظ لا يلحظه غيري، كبرت وعجّزت وصارت بدون طعم ولا رائحة ولا كلمتها أصبحت حلوة. أعرف أنها تخشى أن أتزوج عليها، وهذا حلال طبعًا وسألت فيه الشيخ علي. الذي قال: "حلال.. أربع زوجات!"

وضعت عطيات فنجان القهوة السادة أمامي.. ومضت مثل الدجاجة الدائخة، لم تَرَني في فنادق الخمس نجوم وكيف يُقدم لي فنجان القهوة السادة.. مشكلة عطيات أنها تظنني راضيًا بحالي بسبب العانس آمال، وخائبة الرّجا حنان، والمعتوه عماد. لا. أنا ابتلِيت بهم، لكن عندي عمارتي ذات الطوابق الثمانية ، وهي سِرّي الذي لا يعرفه أحد.

- عطيات.. الافتتاح سيتأجَّل.. بعد أسبوعين سيكون الافتتاح.

معهم ما يكفيهم من نقود.. آلاف، البنت المفعوصة حنان معها آلاف، والمدعو حازم يريد أن يتزوجها ببلاش، هو الذي لم يملك في عمره درَّاجة.

- آمال!

- نعم يا أبي.

- خارجة إلى أين!

توقفت أمام باب الشقة، الذي فتحته بالفعل، بلعت ريقها وهمست:

- طالعة.

زعقت بقرف:

- طالعة!!

أجابت وهي لا تبصُّ في عيني:

- طالعة السطح.. أشِمّ هَوَا.

خلفي وقفت عطيات طبطبت على كتفي:

- اتركها يا عبد السلام.. يسترك.. تشمّ هوا.

***

كنت جالسًا غارقًا فيما أنا فيه، ورأيته في مدخل البيت، بجسدٍ سمين، وببدلة سوداء أنيقة، وصَلَع في الرأس، وشعر ذقن أشيَب، وبيده حقيبة سوداء، ويلتفت يمينه ويساره، كأنه يتلصَّص، كأنه خائف، كأنه هارب، ويمسح عرَق وجهه السمين بمنديل قماش، اتنترتُ من مكاني، رَفعتُ صوتي:

- أنت مَن.. يا أفندي؟!

تلفّت إليّ في قرف، وقال بغضب وهمس:

- أنا الشيخ عليّ يا حمار!

لم أرَهُ سوى بجلّابية!!

قفز درجات السلم، وخرج من البوابة، جريت خلفه، كانت سيارة سوداء في انتظاره، الباب مفتوح، رمى نفسه بالداخل، وهبَد باب السيارة.

ومضت السيارة السوداء. التي لم أرَ نِمرها لضعف بصري.

***

في وحدتي جلست أبحث عن سهير، سمعتُها منذ لحظات تنادي بخُنق ومداعبة:

- مالِك.. مالك.. مالك.

اندفعت إلى درج مكتبي، فتحته برفق، طالعتني صورتها وهي تبتسم ابتسامة واسعة، صوَّرتها لها ذات يوم بعد أن تغدينا في مطعم بسيط، كان الشارع متسعًا خلفها، ورغم الزحام لم يكن غيرها في العالم.

كانت ابتسامتُها واسعة، وكان الخبيثِ يرسم خطته للهجوم علينا والقضاء عليها، وتتركني في وحدتي.

مددتُ يدي المرتجفة، سحبتُ رزمة رسائلها لي، مع أننا كنا معًا في ذات المدرسة، ونتقابل بعد الحصص، وتشرب الشاي، لكنني كنت أكتب وهي تكتب لي. في وحدتي في المساء كنت أكتب لها أنني أحبها جدًا جدًا.

***

انتهى الحفل، وأخذتُ الهدية من أسرة التدريس والمدير الجديد، كان مبتسمًا دائمًا.. ويعدّل من وضع الكرافت بين حينٍ وآخر، إلى المائدة الطويلة جلس

المدرسون والمدرسات الذين شاركوا في دفع ثمن الهدية، كان بعضهم يهمس، وبعضهم قرفان، والسيدات ينظرن في ساعاتهن. أعرفهن جيدًا، هذه اشتبكت مع زوجها، وهذه غضبانة، وهذه ينطُّ الفرح من عينيها لأنها حجزت صالة الأفراح التي سيتم فيها الزفاف.. أعرفهن، ويعلنّ عني:

- الأستاذ فتحي رجل أريب..

وأنا استمعت لكلمات الجميع، كلمات طيبة وساذَجة، وكلمات ناءت من أخطائها النحوية! وأكلوا الجاتوه، وسلَّموا عليّ بحرارة، ما عدا حمدي مدرس الرياضيات المشاكس كثير الغياب، طويل اللسان، رغم ما فيه من شجاعة، وبدت شجاعته حين سلَّم عليّ بدون اكتراث.

انتهى الحفل. أخيرًا أمام البيت، ولكني لا أستطيع أن أجرّ قدمي. ماذا حدث لي؟! خرجتُ على المعاش فخرجت من الحياة، آه.. وجلست على أول درجة من درجات السلَّم. وقلبي يدق بسرعة وثمَّة عرق على جبيني.

***

الحجرة فوق السطح بدونك يا كمال صحراء، والجدران سجن، وأنت طِرت مثل الحمام لتختبئ في السُحُب دون وليف، لماذا يا كمال تركتني وحيدة، عانسًا، لا يهمني الزواج وتكوين أسرة والعائلة، كنت أنت الذي تهمني، هل ضحكت عليّ يوم قلت: "أنتِ الدنيا يا آمال، والألوان يا آمال؟!"

تركت الدنيا والألوان، الحجرة خالية مثلي، تغوص في صمتها الغبي مثلي، ليس غير ألوان طارت، صارت بُقعًا لونية كأنها أدران على صدري يا كمال!!

***

افهميني يا أمي، لا بُدَّ أن أرحل من جحيم الاتهامات والخوف، ما حدث لا أعرفه، لم أرَ الصور التي التقطها لي طالب مع حنان، ولا أعرف من أي زاوية، أنا

وحنان نحلم بالزواج، وابنك حازم يحب أن يمشي رافعًا الرأس، أنا معلّم، وعندي أخلاق وأحلام من طالب متفوق لمعيد لأستاذ دكتور، أحلم بشقة غير الحجرتين وصالة ودورة المياه الضيقة، أحلم أن يكون عندي مكتبة يزيّنها فلاسفة العصور: سقراط، أفلاطون، ديكارت، تضجُّ بالأفكار والصراع. لا أستطيع أن أعيش تحت تهديد صورة على موبايل.

***

بكت أم حازم طويلًا، وكان منديل البكاء لم يفارقها منذ مات الأب وحازم ما زال طفلًا في عامه الدراسي الابتدائي الثاني. مسحت دموعها وأنفها، ومن أنفها تمسح قطرات دماء، نهضت بألم وأمسكت بشريط دواء الضغط المرتفع وفتحته على مهل، وتبُصّ على حازم الذي يَعضُّ شفته السفلى بندم، عادته من طفولته حتى لو فشل في حلّ مسألة حساب.

***

فتحي اشترى الفول والطعمية، وثلاثة أرغفة، وأعطى ظهره للبائع الذي أخذ ينادي عليه عبثًا ليأخذ بقية الجنيهات الخمسة ، لكن ضعف بصره جعل خطواته على الإسفلت حذرة ومتأنية.

لم يحطّ الغروب بعد، دفع باب المنور الحديدي بوهن فانفتح، وشهق، وهاله ما رأى. كانت الحمامتان تحطّان على حافة سقف حجرته.

مُحاولةٌ للنّجاة

للمرّة الأولى يتخلى الأستاذ فتحي مدير المدرسة عن شموخه وهيبته، بل وظل بجلبابه الذي ارتداه منذ ثلاثة أيام، وهذا ما جعل زوجته تبلغ دهشتها وتراقبه من خلف الأبواب، وتززُ عينيها وتتأمل بحثًا عن مشكلة تحطُ على رأس رجلها. وكان يتحرك في الشقة ببطء وحزن وهَمّ، ويمسح بين حيِن وآخر نظّارته الطبية.

- عينك تؤلمك.. يا فتحي.

ضرب الأرض بقدمه اليُمنى.

- عيني.. يا امرأة.. رأسي.. رأسي هو الذي يوجعني.

وظلَّ منتظرًا طول الليل، حتى رجع ابنه كريم، صاحب سوبر ماركت كريم.

- بابا.. اتفضل.

- أريدك في موضوع.

- نعم يا بابا.

- شغّلني عندك في السوبر ماركت.

***

تسلّلت آمال إلى السطح، وتخفي في ظرف أصفر كبير صورتها التي رسمها لها كمال.

فتحت باب حجرة السطح بالمفتاح الذي تدسّه في الشوتيان بين دفء صدرها حتى لا يصلَ إليه أحد.

انفتح الباب وزحفت إليها برودةٌ وأنفاسٌ قديمة، دخلت بوَجَل.. تابعت بقايا

ألوان البلاط، خاصة ذلك الركن الذي كان يقف فيه كمال، أمام الحامل ليرسم، وعيناه غارقتان في ألوان قال لها ذات مرة إن الألوان تأخذ من روحه وتهيم بها.

أخرجت - صورتها - اللوحة، من الظرف الأصفر الكبير، توجَّهت إلى مسمار في الجدار يتوسّط المكان، علّقت الصورة، تأمّلت ألوانه هو، وحاولت استحضار فُرشاته ويده الواثقة وروحه.

يأتيها صوت "ناظم الغزالي" يرجُّ المكان بعذوبته:

"أقول وقد ناحت بقربي حمامة

أيا جارة لو تشعرين بحالي"

ثم انهارت جالسةً على الأرض!!

***

ماذا بكِ يا آمال؟!

بعد الأربعين، وجفاف الزمن تبكين على مَن يرحل، حتى لو كان رحيله في صالحك!

كم قال لكِ:

- اعذريني يا آمال.

وانهمرت في البكاء.

***

عطيّات تلفتّت يمينًا وشمالًا، وتأكدت من أمان المكان ونادت بهمس:

- حنان.. حنان!

ردّت حنان من حجرتها في زهق:

- نعم يا ماما.

قالت الأم بهمس:

- تعالَي إلى حجرتي.

دخلت حنان حجرة الأم عطيات فوجدت آمال. أدهشها الاجتماع، وما يحيطه بأصوات خافتة.

همست عطيات:

- قفلتِ باب الشقة بالمفتاح والترباس يا بنتي؟

- نعم يا ماما.

هذه ثلاثة صناديق. هذا صندوق حنان به المشغولات الذهبية ما يكفيكِ طول العمر. وهذا صندوق آمال به من المشغولات الذهبية ما يجعلها تستغني عن العالَم أجمع وتواجهه بقوةٍ وتحدٍّ وبدون خوف.

وهذا صندوق عماد به آلاف من الجنيهات حتى يواصل دراسته ويدخل الجامعة.

وحـالًا سأعطيكم رقم حسابي في البنكِ. هو لكم.

- لماذا يا أمي؟!

- أخاف عليكم أخاف من غدر الأيام ومن غدر أبيكم!

***

رجع عماد سعيدًا ومنتشيًا، وكان يتقافز كصبي، ويغني ولم يَرَ في الشارع أحدًا، ولم يسمع أحدًا سوى فرحه!

صعد السلالم قفزًا، درجتين درجتين حتى وصل إلى الطابق الرابع، وفتح باب

الشقة بمفتاحه الخاص الذي يتدلى من سلسلة يتأرجح فيها "مفتاح الحياة".

وارتمى على السرير، وأخرج كتابًا من حضنه ودقَّق في عنوانه بفرح، وقال بصوت مسموع كأنما يتهجَّى الحروف:

"الحرافيش

رواية

نجيب محفوظ".

***

- أنا الحاجَّة نعمات الموظفة الكبيرة، وأُمّ سعيد، وتعرضين عليَّ زوجًا.. أيُرضيك يا أُمّ حسن؟!!

- اسمعيني يا حاجة نعمات.. ليس لك في الدنيا غير ابنك سعيد.. ربنا يحميه ويبارك فيه ولكن...

- اسكتي.. اسكتي يا أُمّ حسن.. الضغط ارتفع.. دماغي بها سيخ نار!

- طبعًا سيخ نار.. وغدا وجع في الركب ولن ينفعك سوى رجل يُضلّل عليك!

سكتُ طويلًا.

هجرني ولم يعُد!

ترددت.. قد أفهم، سألت:

- ومَنْ.. مَنْ هو يا أُمّ حسن؟

ها هي الابتسامة تملأ وجه أم حسن، وأنا حطّ في صدري الغَمّ، وارتفع في رأسي الدم. تنهدت، ووضعت فنجان القهوة السادة. وقالت:

- الأستاذ عبد العليم وكيل مدرسة ابتدائي، لم يتزوج، ليس له أب أو أم

أو إخوة.. وحيد في العالم.. سي عبد العليم وكيل المدرسة، وفي هذا الغلاء لايستطيع بني آدم أن يعيش وحده، أنتِ وحيدة وأم، وهو في الخمسين من عمره.

ترددت لحظة، وتحمّست لحظاتٍ وسألت:

- والأستاذ عبد العليم.. لماذا يريد أن يتزوجني؟!

- سي عبد العليم.. يريد الوَنَس.. وقرش على قرش ليستطيع أن يعيش مع سيدة مثلك طيبة.. فكّري..

نهضت في لحظة فاصلة، واتجهت للباب وقالت:

- فكّري.

ثم أكملت:

- وسعيد يتربّى بينكما يا امرأة.

اللّحظةُ الخَطأُ

مددت يدي المرتعشة الخائفة لدولاب أمي. لو رأتني أمي لزعقت:

- دولاب قديم.. ماذا تريدين يا آمال؟!

لكنها لم تَرَني، خرجت مع حنان، تكرر خروجهن السرّيّ هذه الأيام، والبنت حنان ازدادت نحافةً وهمًا، تحب حازم، وحازم يريد أن يصبح عميدًا للكلية.

مددتُ يدي المرتعشة، أحب بين حينٍ يطول وحينَ أن أفتح الدولاب وأتفرّج على ملابسي القديمة، أمي تحتفظ بملابسنا ولا تفرّط فيها، أتفرج على ملابسي وأنا في الحضانة، وأنا طفلة، وأنا شابّة وكنت أيامها لا أحب ابن عمي الذي يحبني، ثم سافر للعراق ومات هناك ربما في حرب أو في مُعتقَل، أو من الجوع.

فتحت دَرفة الدولاب، فأزّت، كانت الدَّرفة في أقصى اليمين، وقبل أن تدور عيني بين الملابس فاجأتني مرآة الدَّرفة، من الداخل. وقبل أن أبتسم كعادتي هالتني شعيرات بيضاء متهدلة على جبيني، وقفت في دهشة صامتة، ثم تأمّلت وجهي.. تجاعيد، كيف حطّت عليّ التجاعيد، ومن أي زمن تراكمت، خيوط كأنها لعجوز، بيدٍ باردة تحسست وجهي، هالة سوداء تحت كل عين، وفي كل عين مرارة وحزن. ومن شفتيّ هرب اللون الأحمر، وما هذا الشحوب؟!

أربعون عامًا حطّت عليّ في لحظةٍ مباغتة! ألم أكنْ أروق لكمال؟!

***

"يا فتحي.. يا فتحي.. يا فتحي".

هذا ما سمعته قبل أذان الفجر مباشرة، من كل طابق، وعبد السلام صاحب البيت تدلّى من نافذة تطلّ على المنور وهو يزعق:

- افتح البوّابة يا فتحي.

نهضت مذعورًا كعادتي. جريت حافيًا حيث البوابة، كانوا قد فتحوها، البوابة مفتوحة، وضابط وعساكر، وعيون تفتش، سأل الضابط وهو يشير إلى شقة الشيخ علي:

- شقة الشيخ علي؟!

لم يتنظرني حتى أجيب، شخص آخر دفع الباب بقدمه، وبعضهم أخرج مسدسات، نعم مسدسات حقيقية.

نزل عبد السلام صاحب البيت بالبيجاما، وفي قدميه شبشب، وفي قلبه رعب.

- ماذا يا أفندم؟! اؤمر.

الشقة ابتلعت العساكر والضباط وسدَّ مدخلَ البوابة سيارةُ بوليس ضخمة.

سمعت صوت الضابط عاليًا. دخلت الشقة معهم. صرخ الضابط في وجه عبد السلام:

- ما هذا؟! الشقة خالية.

اندهشت، واندهش عبد السلام. متى مشى الشيخ عليّ، ومتى نقل عفشه. لا يوجد شبشب في الشقة.. الشقة خالية تمامًا.

خرج الضابط والعساكر.

وكان عبد السلام يرتعش. طبطبتُ عليه حتى يهدأ، وجلست على درجة السلم، والدنيا برد.

صعد عبد السلام درجات السلّم، وهو يرتعش وضرب كفًا بكفٍّ وهو يتمتم:

- حسبي اللّهُ ونِعم الوكيل!

ثم ردَّد بصوت يكاد مسموعًا:

- سأغير الكالون والمفتاح، والقفل وحتى الجنزير.

حسبي اللّه ونعم الوكيل!

***

هذا الكرسي مريح، أجلس عليه فأكشف السوبر ماركت كله، الداخل والطالع، والعمال، وابني كريم في ركنه المتميز الخاص في حجرته الزجاج وأمامه الشاشة التي تعرض كل ما تنقله العدسات السريّة. عدسات سرية!! وحتى من مكاني أرى الشارع، نعم الشارع الضّاجّ بالحياة، والناس والحكايات، حتى داخل سوبر ماركت كريم حواديت وسيدات وآنسات وعجائز.

أجلس على كرسي جلد، وأمامي ماكينة الحاسبات والفلوس والإيصالات، أراقب وأدير، تمامًا كما كنت الأستاذ فتحي مدير المدرسة، كانت مدرستي تدور مثل ساعة دقيقة وأحيانًا يأتي تلاميذ كانوا في المدرسة، أصبحوا أطباء ومعلمين، وحتى شابٌ أخبرني أنه يعمل صحفيًا في جريدة سيّارة. أنا لا أعرفهم وهم يعرفونني.

- أستاذ فتحي؟!

- نعم بعينه، وهذا محلُنا سوبر ماركت كريم، تجدون فيه ما يسرُّكم.

البعض يغمز ويلمز، والبعض يصافحني بتقديرٍ مُبالغٍ فيه.

***

فجأةً انفجرت الأصوات بالزعيق، وتداخلت، الصوت الأعلى صوت عبد السلام صاحب البيت. ظلّ الزعيق يعلو حتى خرج فتحي وجرى باتجاه درجات السلم الصاعدة، ثم نزل، للمرّة الأولى يخرج صوت من شقة عبد السلام، صرخة بنت مدوية، ثم سمع صوت عماد عاليًا يصرخ ويزعق. جرى فتحي إلى الشارع، رأى سكانًا وجيرانًا يطلُون من الشبابيك، والبلكونات، ومن فوق السطوح، وقف

آخرون، لكنهم كانوا ينظرون لمكان واحد. شقة عبد السلام صاحب البيت.

صعد فتحي السلالم جريًا وهو يلهث، وقف أمام باب الشقة، الأصوات غاضبة، وكأن زجاجًا يتكسّر.

- سأرميكم في الشارع.

صوت عطيات تصرخ:

- اسكت.. نسيت إنت ابن مين؟

- يا ابنة الكلب!

وضربة كأنما سمعها فتحي، وارتطام كأنه ضربة النهاية، ثم صفت، ثم انفجار بشتائم متبادلة!!

***

شددت الكرسي، وجلست أمام حجرتي في المنور، أبصُّ على شباك عبد السلام المُطلّ على المنور. اتهبدت دَرفة الشباك في الجدار، أطلّت حنان برأسها، وشعرها المنكوش وأخذت تصرخ في الموبايل:

- إلحقنا يا خالي.. إلحقنا!!

وقبل أن أهدأ لأن أولاد الحلال سيتدخلون، خاصة وأنا أعرف خال حنان، الحاج منصور فهو رجل طيّب وعنده فدان أرض يزرعه كل عام غلابة الفلاحين. قبل أن أهدأ هجم عماد ودخل المنور في حالة هياج وهو ينادي:

- خبّئني يا فتحي.. اخفيني!

ودخل حجرتي، وأقفل خلفه الباب، وأنا ظللث جالسًا على الكرسي حتى صمتَ كل شيء.

بعد وقت، فتحت الباب بهدوء، وأغلقته خلفي بعنف.

- ما الخبر يا عماد؟!

ضرب وجهه بيديه وهو يبكي:

- أمي.. حاولت إبعاد أبي وهو يضرب أمي!!

لم أستطع، وجهت لوجهه لَكْمَة فجاءت في وجه أمي.. أمي سقطت على الأرض يا فتحي، أخطأت اللكمة!

ثم ضرب وجهه، جرى ناحية الباب يريد الخروج ليطلع، منعته، قلتُ له:

- سأطلع أنا.. سأعرف كل شيء.

***

صعدت درجات السلم، كأنني أحمل مِلحًا على كتفيّ، وحاولت أن أتنصّت لعلّي أسمع بكاءً أو عويلًا، أو.. وقع مني قلبي، عبد السلام شخصيًا قابلني على درجة السلم، كان منفعلًا، ينفخ، نزل كأنه لم يَرَني.

- يا ساتر استرا!

انخلع قلبي، ما هذا الصمت. صعدتُ حتى وصلت، أمام باب الشقة بالضبط. هل أضغط على الجرس، هل أخبط بيدي. تقدمت ببطء، وضعت أذني على الباب لعلّي أسمع، لم أسمع شيئًا. ترددت، لكنني قررت. خبطت بيدي خبطة خفيفة، وانفتح الباب بسرعة لم أتوقعها، كانت حنان غير ما رأيتها في أي مكان، شَعر غير مُصفّف، عيون زائغة، صفراء اللون.

- نعم يا فتحي!

تلعثمت:

- هل.. هل أنتم بخير؟

صمتت قليـلًا ثم قالت:

- نعم.

سألتُها:

- والحاجَّة بخير؟

همست:

- نعم.

سمعت من الداخل صوت الحاجَّة يسأل:

- مَنْ يا حنان؟

نزلتُ مطمئنًا لأُطمِئن عماد.

شحبُ دَكْنَاء

لا يعرف فتحي كيف قفزت هذه الفكرة إلى رأسه:

أن يذهب للشارع المزدحم بالبائعين على الجانبين، مَنْ تجلس على الأرض أمام فَرشتها الزاخرة بالطماطم والبطاطس والباذنجان، والأخرى التي أمامها كوم من الفجل والجرجير والبقدونس والبصل الأخضر، وعابرات بجوار الرصيف، وصاحب عربة موز مُعلِّقًا مصباحًا كهربائيًا من سلك يتدلى من سلك العمود العمومي، ومسجِّلًا لا يكفُّ عن أغاني مهرجانات، وفي قلب الموز لافتة مغروزة صغيرة متهرِّئة بثمن الكيلو.. هناك سيسأل عن إعتماد صاحبة الابتسامة المميزة، والضحكة الحلوة، سيسأل عن إعتماد بائعة الجبن واللبن والزبدة والبيض، سيسأل عن إعتماد ليعيد إليها عنزتها قبل ذبحها.

وألف من سيدلُّه!

***

للشارع رائحة مطر الأمس، كان المطر خفيفًا، والشمس ساطعة في ظهيرة اليوم، ماتت سهير التي وعدتني بعمل نظارة للنَّظر، وعماد يستغرب مما حدث.. لا سعيد مهران ولكن عَمّ نجيب محفوظ كان يعرف أكثر منك يا عماد.

- آه.. صدري يا رجل!

- حقَّك عليّ يا حاج.

خبطني هو الذي يرى في صدري، أنا الذي لا أرى سوى "طشاش"، عَلَتِ الأصوات والضجّة ونداءات البائعين.

وعليّ أن أسأل عن إعتماد!

***

- شكرًا يا أمي.

ابتسمت وقلت لصاحبي وائل:

- اشرب شاي أم مصطفى.

ثم نهضث وأحضرثُ الموبايل. شغَّلته، سحبت أيقونة "الاستوديو" حيث الصور التي التقطتها بكاميرا الموبايل. أنا أحب التصوير، خاصة تصوير القطط والكلاب عند ألفتها. وأسوأ صورة التقطتها كانت لطائر أبو قردان واقفًا بأرجله الطويلة في كوم زبالة ولم يعُد ناصع البياض.

انظر يا وائل!

شهق وائل.

نعم هذه صورة حنان.. على الموبايل بحركات خفيفة حددت الصورة.. حذفت حازم وبقيت حنان وحدها.

أنا أفرح حين أرى وجه حنان يا وائل!

***

كأنما اقتحم المكان بغريب.. خطواته المترددة، وبحلقته في الوجوه، وملابسه، حيث يلبس بنطلون جينز، وتيشيرتَ مُبقَّعًا بالألوان، وقميصًا أزرق كاروهات، ثم جاكتَ جلدٍ متآكلًا من عند المرفقين.

هو فتحي.. الذي ظن الدنيا غرقت في مطر الأمس، غير أن الشمس عاندته وسطعت! بصّت له صاحبة فَرشة الخضار، ولَوَت بوزها. وشخطت فيه:

- ما بك يا رجل.. تبحلق.. وتبصّ؟!

تلعثم.. رد:

- إعتماد.. هل تعرفين إعتماد يا حاجّة؟!

أمسكت بكفّة الميزان ملوّحةً، ومهددةً بضربِه:

- امشي.. إعتماد!!.. غور.

ردّ عليه رجل وهو يعدّل من وضع حماره المشدود بعربته الخشب:

- تبحث عن بائعة.. ماذا تبيع؟

تلعثم مرة أخرى:

- إعتماد.. بائعة الجبن واللبن.

- أين تجلس يا بني؟

- تأتي من بلدها وتبيع في البيوت.

- آه.. لن تجدها.. السوق يا بني ليس مشاعًا لأي أحد.

وهكذا لفّ ودار، من بائع ومن محل لآخر. ولم يفارقه لحظة أنه سيجدها، وتناديه بفرح يا فتحي.

لكنه رجع بعد أن نال العديد من السخرية والتهكُّم والزُّجر، والسِّباب.

كان يردد في نفسه:

- راحت إعتماد.. راحت!

أسبوع وأسبوع وأسبوع.. أين أنتِ يا إعتماد؟

***

كان ذلك الصباح مؤلمًا، وحنان شعرت بألم في صدرها، ولكن رقّتها صارت عنادًا بلا رجعة، وبصفتي الراوي العليم، أعرف أنها بالأمس وبعد أن نامت أمها وآمال، نهضت في غضب وفتحت درج مكتبها وأخرجت خطابات حازم التي لا تتعدى صور التهاني المطبوعة بعيد رأس السنة، وشمّ النسيم، وعيد الفطر،

وحتى صورة بتهنئة عيد الأم. مزقتها بلا تردد، ورمتها في سلّة الزبالة، كانت تقضم شفتها السُفلَى، وقالت: "إنه ضعيف، أحلامه ضيقة، ومرعوب.. إنها لا تحبه".

ولذا في ذلك الصباح المؤلم قابلته بالطابق الثالث ماشيًا مرتبكًا بين الطلاب. بصّت له في تحدٍّ ومضت، هو وقف مندهشًا وتَمتم بحيث لا يسمعه أحد:

- حنان.

لكنها لم ترد!

***

فتحي في طريقه للبيت تخبَّط في شخوص، واعتذر لناس وزجرته ناس، وضعف بصره كأنه ازداد غشاوة، أخذ يدعك في عينيه، ويمشي على الرصيف، ويهرش في شعره الناعم، حاول بعينيه الكليلتين أن يصل للبيت، حتى وصل.

وعندما دخل المنوَر كانوا هناك، عبد السلام صاحب البيت والجزار والعنزة، وحمامتان واقفتان على سطح حجرة خشبية. رفع فتحي يديه بعنف ليهشّ الحمامتين.

طارت الحمامتان ودخلتا في شحُب دَكْنَاء!!

المحلة الكبرى

مارس 2023

المؤلف في سطور

جار النبي الحلو

- مواليد 1947/1/29 – المحلة الكبرى.

صدر للكاتب:

- القبيح والوردة – قصص قصيرة – دار شهدي 1984.
- طعم القرنفل – قصص قصيرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب 1986 – طبعة ثانية مكتبة الأسرة 2000.
- الحدوتة في الشمس – قصص قصيرة – دار الغد 1989.
- طائر فضي – قصص قصيرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب 1990 – طبعة ثانية 2001.
- حلم علي نهر – رواية – الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993 – طبعة ثانية – مكتبة الأسرة 1999 ط ثالثة دار " أرابيسك" 2009.
- قمع الهوى – قصص – دار ومطابع المستقبل 1994.
- حكايات جار النبي الحلو – حكايات – الهيئة العامة لقصور الثقافة 1997 – طبعة ثانية مكتبة الأسرة 2004.
- حجرة فوق سطح – رواية – المجلس الأعلى للثقافة 1999 – الطبعة الثانية 2012 (المجلس الأعلى للثقافة).
- قمر الشتاء – رواية – المجلس الأعلى للثقافة 2003.
- عطر قديم – رواية – طبعة أولى – دار المحروسة – 2010.
- قرط فضي صغير – مختارات قصصية – الهيئة العامة لقصور الثقافة -

.2014

• العجوزان – رواية – طبعة أولى – روايات الهلال - 2016.

*** كتب للأطفال:**

• محاكمة في حديقة الحيوان – رواية – أبو ظبي 1992.

• قط سيامي جميل – قصص – كتاب قطر الندى 1996.

• ليلة سعيدة يا جدتي – قصص – كتاب قطر الندى 2003.

• الكتكوت ليس كلباً – قصة – دار الشروق 2003.

• أنا ومراكب أبي – قصة – دار الشروق 2009.

• الجرو والسيدة العجوز - كتاب قطر الندى 2011.

• في صحبة جدتي – دار نهضة مصر للنشر- 2018.

• أصحاب ونس – المركز القومي لثقافة الطفل - 2021.

*** مسلسلات تليفزيونية للطفل:**

• أصيل في أرض النخيل.

• أصيل في السيرك الكبير.

• حكايات منسية.

• كنز الواحة.

• فرس يدق الجرس.

• حدوتة في حدوتة.

• الجبرتي.

• حواديت جميلة.

• طيور صغيرة.. فيلم أطفال.

• ريش الطاووس.. فيلم أطفال.

*** جوائز وشهادات تقدير:**

• حصلت المسلسلات على جوائز ذهبية وفضية وبرونزية في مهرجانات القاهرة لسينما الأطفال ومهرجانات الإذاعة والتليفزيون.

• جائزة أحسن كاتب سيناريو أطفال عن سيناريو " حكايات منسية " – مهرجان الإذاعة والتليفزيون 1996.

• الميدالية الذهبية – مهرجان القاهرة للإذاعة والتليفزيون 1996.

• شهادة تقدير للأداء المتميز في دعم ثقافة الطفل 1997.

• تكريم من جمعية المسرحيين – دولة الإمارات العربية المتحدة – في مهرجان الشارقة المسرحى1997 ـ عن مسرحية الأطفال "سرقوا الكأس يا ماجد".

• شهادة تقدير من الهيئة العامة لقصور الثقافة – الإسكندرية - 1999.

• تكريم من صوت القاهرة – اتحاد الإذاعة والتليفزيون – لحصول مسلسل الجبرتي على الجائزة الذهبية 1999.

• جائزة التفوق من الهيئة العامة لقصور الثقافة – مؤتمر أدباء مصر في الأقاليم – مرسى مطروح 2000.

• الجائزة الأولى محترفين عن قصة "الكتكوت ليس كلباً" 2003.

• فيلم "طيور صغيرة".

حصل على الجوائز الآتية:

1. الجائزة الذهبية للأفلام القصيرة – في مهرجان القاهرة الدولي لسينما الطفل – 2008.

2. الجائزة البرونزية للأفلام الروائية القصيرة في مهرجان القاهرة الدولي لسينما الطفل 2008.

3. الجائزة الذهبية من وزارة الثقافة للأفلام العربية.

- جائزة التميز من إتحاد كتاب مصر 2012.
- جائزة الدولة للتفوق في الآداب 2016.
- تكريم المجلس الأعلى للثقافة (لجنة أدب الطفل) 2018.
- تكريم ملتقي الشارقة للتكريم الثقافي - 2023.
- رئيس تحرير سلسلة كتاب قطر الندي 2012 – 2015.
- عضو اتحاد كتاب مصر.
- شارك في عضوية المجلس الأعلى للثقافة في لجنة القصة والرواية.
- شارك في عضوية المجلس الأعلى للثقافة في اللجنة العليا للتفرغ.
- رئيس مؤتمر الطفل بالهيئة العامة لقصور الثقافة.
- رئيس مؤتمر أدباء القاهرة الكبرى وشمال الصعيد ببني سويف - 2018.
- شارك في مؤتمرات الرواية العربية بالقاهرة.
- شارك في معرض الشارقة للكتاب - 2019.